

الفصل الأول

نهضة عصر الاسكندر

تفكك إمبراطورية الإسكندر

تم تدهور بلاد اليونان وسقوطها بوقوع الغزو المقدوني ، إذ وضعت وقعة خيرونيا التي انتصر فيها فيليب الثاني في أغسطس سنة ٣٣٨ حداثاً لاستقلالها ، وبعد ذلك بعامين . مات فيليب الثاني قتيلًا واعتلى العرش مكانه ابنه الإسكندر الثالث . الذي فتح جزءاً كبيراً من العالم المعروف مدة اثني عشر عاماً من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٣٢٣ : حين مات وهو في شرخ الشباب ؛ إذ لم يتجاوز الثالثة والثلاثين ربيعاً . وكان لوفاة الإسكندر صدى عميق ، ففتوحاته وضعت نهاية للعصر الهليني القديم . ولكنها بدأت عصراً جديداً في التاريخ ، وهي ما تسمى باسم العصر الهلنستي الذي استمر ثلاثة قرون من حوالى سنة ٣٣٠ ق.م. إلى أن أسس أغسطس قيصر الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٠ ق.م.

بعبارة أخرى ختم الإسكندر الأكبر عصراً وفتح عصراً آخر جديداً ؛ إذ كانت إمبراطوريته التي أنشأها عالمية ، تضم تحت حكم المقدونيين شعوباً كثيرة تختلف في الجنس واللون واللغة والدين ، ولكن ثقافتها العليا ولغتها كانت يونانية . ولما كانت جيوش الإسكندر مقدونية ويونانية ، فإنه حمل معه الثقافة اليونانية إلى قلب آسيا ، وقيل إنه صبغ غرب آسيا بالصبغة الهلينية ،^(١) على أن هذه العبارة ينبغي تحديدها من نواح عديدة ؛ لأن غرب آسيا لم ينصبغ بالصبغة الهلينية قبل الإسكندر فحسب ، بل إن حافتها الغربية كانت مهد العلوم اليونانية . ثم إن أحلام الإسكندر لم تقتصر على تكوين إمبراطورية عالمية ، بل امتدت هذه الأحلام إلى ضرب من الوحدة أعمق من ذلك ، وهي وحدة الفكر . وقبل الرواقيين والمسيحيين بزمن طويل كان الإسكندر أول رجل فكر

في الإخاء بين بني البشر ، ^(٢) وهو من أجل ذلك جدير بأن يكون اسمه الخالد الإسكندر الأكبر . ولما لم يكن الإسكندر نفسه من أصل يوناني تقي ، بل أجنبي هليلني ، كان من الأيسر عليه أن يدرك فكرة مثل تلك الأخوة ومزج الأجناس التي تنطوي عليها مما كان على أفلاطون مثلاً . وفي سنة ٣٢٧ ضرب الإسكندر المثل على ذلك كله بزواجه من الأميرة روكسانا ^(٣) الباكثيرية . وبعد ذلك بستين ، خص الإسكندر بمدينة سوسة ثمانين من قواده بزواج آسيويات أغدق عليهن البائئات الوفيرة . واتخذ الإسكندر من باريسنه زوجة ثانية ، وهي كبرى بنات دارا الثالث ، آخر ملوك فارس . ولعله تزوج من ثالثة هي باريسيتيس ابنة أرتاجزرسيس الثالث أوخوس . وبعد وفاة الإسكندر بقليل ، قتلت روكسانا ضربتها باريسنه .

أما فيما يتعلق بالجنود اليونانيين ، وتابعي المعسكرات ، والمستوطنين من كل جنس ، فلم يكونوا في حاجة للاقتناع باتخاذ فتيات وطنيات زوجات أو محظيات . على أنه يجب على الباحث ألا يبالغ في أهمية هذه الزيجات المختلطة ، لأنه مهما يكن عددها كبيراً فهي لا يمكن أن تترك أثرها إلا في جزء قليل من السكان . ثم إنه لم يوجد من اليونانيين في أى وقت من الأوقات ما يكفي لصنع مصر وآسيا الصغرى بالصبغة الهلينية بعد الإسكندر ، مع العلم بأن بلاد اليونان فقدت نسبة كبيرة من أشد مواطنيها طموحاً وإقداماً بالانتقال إلى تلك البلاد ، لأنه على الرغم من التفوق الثقافي اليوناني لم يستطع أولئك اليونانيون سوى أن ينغمروا في بحار المجتمع المصري والآسيوي ، ولم يكن بوسعهم مقاومة تيار الثقافة المحلية ، وكان صبغهم بالصبغة الشرقية هو النتيجة الحتمية . وكان تأثير الزوجات والأمهات الآسيويات شاملاً في ميادين معينة مثل المعتقدات الموروثة والدين . ولذلك يستطيع الباحث أن يذهب إلى حد القول بأن إمبراطورية الإسكندر ساعدت على صبغ شرق أوروبا بالصبغة المصرية والآسيوية وبدلاً من القول بصبغ آسيا بالصبغة الهلينية أو بصبغ أوروبا بالصبغة المصرية الآسيوية ، فمن الأسلم أن نقول إن الشرق والغرب تلاقيا ولم يفرقا بعضهما عن بعض أبداً في تلك المنطقة —

جنوب شرق أوروبا ، وشمال شرق أفريقية ، وغرب آسيا .
 مات الإسكندر وهو شاب في الثالثة والثلاثين ، ولم يترك وريثاً سوى طفل
 ولد بعد وفاته ، ولم تتخذ أى ترتيبات لاستمرار الحكم ، إذ تكونت الإمبراطورية
 التي أنشأها من عناصر مختلفة كانت من الضخامة بحيث لا يستبعد أن الإسكندر
 نفسه لم يكن في مقدوره أن يحافظ على وحدة تلك الإمبراطورية ، غير أن الحظ
 كان حليفه بموته قبل تفككها . وعندما كان الإسكندر يلفظ أنفاسه الأخيرة
 أعطى خاتمه إلى قائد من قادته هو بيرديكاس المقدوني ابن أورتيز ، ولكن لم
 تلبث المنافسة العنيفة بين الآخرين أن خلقت حالا من الفوضى ، وشهدت
 نهاية القرن الرابع وبداية الثالث (حوالي ٣٢٣ - ٢٧٥) سلسلة من الحروب التي
 تعرف باسم حروب خلفاء الإسكندر ، وتفصيلها بالغة معقدة ، وهي لانهم
 قراءنا .

وإذا تركنا الولايات الشرقية التي تقع شرق الخليج الفارسي وجنوب غربي
 نهر أوكسوس (جيحون) ، يتضح أن الإمبراطورية انقسمت إلى ثلاثة أقسام ،
 وهي : مقدونيا وبلاد اليونان تحت حكم الأنيجونيين ، وغرب آسيا تحت حكم
 السلوكيين . ومصر تحت حكم البطالمة . وبعد أن تحولت تلك الأقسام الثلاثة
 إلى ممالك (حوالي ٢٧٥) استمرت العلاقات بينها طافحة بمراحل من التنافس
 تعقبها مراحل من التحالف أو العداء ، وتزداد صعوبة أى وصف لضروب
 الغيرة والصدام والحروب التي وقعت بين تلك الممالك بسبب ما تخللها من
 انقسامات داخلية أو ثورات خاصة لكل مملكة من تلك الممالك ، أو بسبب
 الدسائس التي بدأ الرومان في تدبيرها منذ سنة ٢١٢ . واستغل الرومان كل
 خلاف بين تلك الممالك باعتباره كسباً لامبرياليتهم . مثال ذلك أنه عندما وسع
 الأتاليون ملوك برجامه ، رقعة أملاكهم على حساب مملكة السلوكيين ، كانت
 روما على استعداد لمعاونتهم (سنة ٢١٢ وبعدها) ، ودبرت شئونها على أن تكون
 وريثهم سنة ١٣٠ ق . م .

وتطور كل من هذه الممالك الثلاث أو الأربع كل على طريقته وتبعاً

لأحواله الجغرافية والأثروبولوجية ، وستتاح لنا مناسبات فيما يلي للإشارة إلى واحدة أو أخرى من تلك الممالك على أننا سنقصر اهتمامنا في هذا الفصل على مملكة البطلمة في مصر .

وعندما يتكلم الباحث عن العصر الهلنستي فإنه يعنى الثقافة الهلينية التي انتشرت في الأقطار الواسعة التي تكونت منها إمبراطورية الإسكندر من بقعة (فرناقة) غرباً حتى نهر السند شرقاً . ومن المصطلح عليه أن العصر الهلنستي يمتد حتى زمن المسيح تقريباً ، وأن الحكم الروماني أخذ يحل محل الحكم الهلنستي تدريجياً من بداية التاريخ المسيحي . وفيما يتعلق بتاريخ العلوم فإن العصر الروماني ظل يونانياً إلى حد بعيد ، ولكنه لم يعد يسمى باسم الهلنستي ، بل الروماني ثم البيزنطي فيما بعد سنة ٣٢٥ .

حقاً إن عالمية اللغة اليونانية (باعتبارها الوسيلة الثقافية العليا) كانت ظاهرة عالم الإسكندر كله ، لا في العصر الهلنستي فحسب ، بل العصر الروماني أيضاً ، وعلى الأقل في المناطق الشرقية التي كانت تتمتع بأكبر قسط من الثقافة .

التأثيرات الإيرانية والهندية في الممالك الهلنستية

سنكسر معظم عنايتنا إلى الثقافة التي ازدهرت في مصر ، وقبل أن نبدأ ذلك ينبغي أن نصر على شرح التأثيرات الشرقية التي قامت بدورها في الممالك الهلنستية ، لأن القارئ تعود قراءة عبارة « صبغ الشرق بالصبغة الهلينية » بدون أن يكون على دراية كافية برد الفعل الشرقى . أما التأثيرات اليهودية التي سيكون تسليم القارئ بها أكثر سهولة ، فسنترك الكلام عنها الآن .

ولنسلم أيضاً بضرور التأثير المحلية ، وهي التأثيرات الفرعونية في مصر ، والتأثيرات البابلية في المملكة السلوكية ؛ إذ أن الثقافات القديمة ظلت حية ، وذات روعة وتأثير . وكان من الضرورات السياسية للبطلمة أن يوجهوا انتباههم إلى الديانة المصرية القديمة . كما كانت سياسة السلوكيين قائمة على احترام المعارف والطقوس الدينية البابلية وإحيائها . وكانت أوجه الاختلاف بين مملكة

البطالة ومملكة السلوكيين ترجع إلى صفات طبيعية وعوامل اقتصادية ، كما ترجع إلى اختلافات واضحة كل الوضوح في ماضي تاريخهما وديانتهما ومعتقداتهما الموروثة .

وكان طبيعياً أن تكون التأثيرات الإيرانية كبيرة ، لأن المستعمرين اليونانيين في آسيا ورعايا ملوك الفرس تبادلوا علاقات كثيرة متنوعة ، ومنها ما هو طيب ، ومنها ما هو سيئ ، ولابد أن التجار الفارسيين كانوا منتشرين بكثرة في ميليتوس اليونانية وفي مدن أخرى من مدن الاتحاد الأيوبي . وفي الغرب حتى سيراكوز استقبال الملك جيلون (ت ٤٧٨) أحد الحكماء الفرس^(٤) الذي ادعى أنه أبحر حول أفريقيا كما فعل الفينيقيون أيام الملك نخاو وفيما بعد أيام الملك دارا العظيم^(٥) . وشرح كتسياس الكنيدى (آخر القرن الخامس ق.م.) الثقافة الإيرانية في كتابه عن تاريخ الفرس ، ثم ألم يقرأ كل يوناني متعلم تاريخ حياة الملك الفارسي قورش وهو الكتاب الذى ألفه كسينوفون (٤ - ١ ق.م.) ؟ وهذا الكتاب قصة سياسية ، ولكن أحداً لم يكن ليستطيع قراءته ما لم يكن على علم بفارس ، وبأن هناك النبلاء الطيبين من الفرس ، ومنهم الأشرار كذلك .

وكانت بابل ولاية فارسية من سنة ٥٣٨ ، ومصر ولاية فارسية أخرى من سنة ٥٢٥ إلى فتح الإسكندر لها في سنة ٣٣٢ ، وخلال هذين القرنين نبتت جذور كثير من النظم والعادات والأفكار والألفاظ الفارسية . ولو كانت معرفتنا بالمصادر الإيرانية أحسن مما هي عليه الآن ، لكان من المحتمل أن نرجع بكثير من مظاهر الثقافة اليونانية إلى تلك الجذور ، وعلى سبيل المثال ، من الجائز أن نظرية العناصر نشأت في فارس ثم انتشرت منها إلى العالم اليونانى وإلى الهند والصين .^(٦) على أن هذا تصوير خيال ، أما حقيقة الاتصالات بين الممالك الهلنستية وإيران ، فما من شك في أنها كانت عديدة^(٧) .

* * *

وكانت العلاقات اليونانية الهندية أكثر تعقيداً من العلاقات اليونانية الإيرانية . وتبدأ تلك العلاقات بنفس الوسيلة عن طريق المستعمرات الأيونية وخاصة مدينة ميليتوس وأسواقها ، فلم يعرف التجار الهنود عائناً للوصول إلى تلك الأسواق الغنية . كما استطاع الوسطاء أن يحملوا البضائع والآراء الهندية أيضاً إلى هناك . وقام هنود آخرون بزيارة بلاد اليونان لعرض حكمتهم على اليونانيين ، أو لتلقي الحكمة عنهم وسبق لنا ذكر (٨) القصة الطريفة التي تشرح مقابلة سقراط لأحد حكماء الهنود . وكانت أقدم الروايات عن الهند هي التي كتبها هيرودوت (القرن الخامس ق . م) الذي سجل عن الهنود أنهم يزرعون القطن ويسجونه . وهذه فضلاً عن روايات كنياس الكيندي في كتابه عن الهند (٩) . أما اتصالات هيبوكراتيس بالإيرانيين فيشوبها الشك . ولو أنها لم تكن صعبة في منطقة جزيرة كوس أو بحر إيجه . أما أوجه الشبه بين بحث هيبوكراتيس في تأثير البيئة على الإنسان المسمى « عن الهواء » والطب الهندي فتعزى في الغالب إلى تقارب المصادفة (١٠) .

كانت كل هذه الاتصالات اليونانية الهندية نادرة ومحدودة المدى . غير أنه لما قام الإسكندر بفتوحاته في آسيا ، حدثت اتصالات على نطاق واسع : إذ وصل الإسكندر إلى نهر السند ، وفيما تلا ذلك من قرون غزا اليونانيون الجزء الشمالي من الهند (إلى خط عرض ٢٢ درجة شمالاً تقريباً) وأسسوا ممالك ومستعمرات في أماكن متعددة (١١) . وكان اتصال الإسكندر بالحكماء الهنود موضوع حولية خيالية تسمى « محادثات الإسكندر مع الفلاسفة الهنود العشرة » وظهرت هذه الحولية في صور عديدة في العصور القديمة (١٢) .

وخلال الاضطرابات التي وقعت عقب وفاة الإسكندر . استطاع مغامر هندي رأى الإسكندر في شبابه واسمه شاندرنا جوتا (ساندر و كوتوس باللغة اليونانية) أن يسيطر على جزء كبير في شمال الهند ، وأن يكون الإمبراطورية المورية التي استمرت من أيام اعتلائه العرش سنة ٣٢٢ (أو قبل ذلك) إلى سنة ١٨٥ ميلادية ، وأقام هذا المغامر عاصمة إمبراطوريته في باتا ليبوترا (١٣) .

وتأثرت الثقافة المورية العالية بالثقافة الإيرانية ، ومن ثم يحتمل أن التأثيرات الإيرانية انتقلت غرباً عن طريق شمال الهند . كما انتقلت من الأراضي الإيرانية . ثم إن الملك سليوكس نيفاتور (ملك سوريا من سنة ٣١٢ إلى سنة ٢٨٠) غزا أراضي شاندرأ جوتا سنة ٣٠٥ ولكنه اضطر إلى الانسحاب . وفي سنوات السلام التي تلت ذلك ، تنازل سليوكس للإمبراطور شاندرأ جوتا عن البنجاب وجبال هندوكوش ، ولكنه تسلم في مقابل ذلك خمسمائة فيل من أفيال الحرب . وفي سنة ٣٠٢ أرسل الملك سليوكس الكاتب ميجاستنيس سفيراً إلى باتاليوترا . ونشر هذا الكاتب نتائج رحلته « مشاهدات هندية » وهذا الكتاب للأسف فُتد ولا نملك منه سوى بضع مقتطفات نستطيع أن نحكم منها على أن الكتاب كان يحتوي على قدر كبير من المعلومات عن شمال الهند . وكثير من قصص هذا الكتاب صعبة التصديق ، ولذلك خسر ميجاستنيس ثقة المؤرخين الذين جاءوا بعده مثل بوليوس وسرابون وكان مصيره مصير هيرودوت وماركوبولو . ولو بقى المتن الكامل لهذا الكتاب لوجدنا أن ميجاستنيس كان على حق في كثير من المناسبات كما كان هيرودوت وماركوبولو .

وعلى أية حال توافرت لأهل العصر الهلنستي وسيلة لمعرفة الكثير عن تلك البلاد اليونانية الغامضة . ومع أن معرفتهم كانت ناقصة وفي بعض الأحيان خاطئة ، فإنها كانت غير قليلة .

ومن الهنود الذين جاءوا إلى مصر كان بعضهم تجاراً أو رحالة ، والبعض الآخر مبشرين بالديانة البوذية . وبخاصة في أثناء حكم أسوكا ملك ماوديا ، الذي امتد سلطانه في جزء كبير من شبه الجزيرة الهندية (فوق خط عرض ١٥ درجة شمالاً) من سنة ٢٧٣ إلى ٢٣٢ . وكان أسوكا على اتصال ببطلميوس فيلاديلفوس ملك مصر ، وانطيوخس الثاني ملك سوريا ، وإنتيجونوس ملك مقدونيا . ومن الناحية الأخرى ، بعث بطلميوس فيلادلفوس رسولا إلى الهند لكي يحصل على فيلة ومدربين لها ، فالقرن الثالث كان عصر السفن الحربية الضخمة في البحر . وحرب الفيلة على الأرض . وطبعاً كان الملوك السلوكيون أغني

في عدد الأفيال لأنهم أقرب إلى الهند من غيرهم . غير أن خصوصهم ، ملوك البطالمة ، بذلوا كل جهد للحصول على عدد أوفر من الأفيال ، لا من الهند فحسب ، بل أفريقية أيضاً . واستخدم البطالمة النوعين في الحرب ، وكانت الموقعة الأولى بين الأفيال الهندية والأفريقية هي موقعة رفع^(١٤) سنة ٢١٧ ، ولتفوق الأفيال الهندية في العدد انهزمت الأفيال الإفريقية . وتشير التجارة في الأفيال إلى أنه كان هناك تبادل تجارى أيسر في أنواع أخرى من السلع ، كما تشير إلى وجود تبادل ثقافى .

وكان مناندروس أشهر الملوك اليونانيين في الهند . وليس لنا به معرفة جيدة ، والقليل الذى نعرفه عنه يصعب علينا التفرقة فيه بين الحقيقة والخيال . كان مناندروس ملك كابول والبنجاب . وحكم الهند اليونانية إلى كاثياوار (جوجرات الغربية على الساحل الغربى عند خط عرض ٢٢ درجة شمالا تقريباً) حتى وفاته ، أى من حوالى سنة ١٥٠ إلى سنة ١٤٣ . على أنه كان معروفاً معرفة جيدة لرعيته من المنود باسم ميليندا حتى إنه أصبح بطل رسالة بوذية تسمى ميليندا . وهى تشتمل على « أسئلة ميليندا » . وليس من المؤكد أنه كان بوذياً ولكنه كان على شاكلة ملوك العصر الملنسى صديقاً متسامحاً نحو ديانات رعيته . ويلاحظ أن كتاب ميليندا هو الكتاب الهندى الوحيد الذى تناول ملكاً من ملوك اليونان في الهند^(١٥) ومن المحتمل أنه كتب في بداية العصر الميلادى وهو محفوظ باللغتين البالية والصينية (انظر ما يلى) .

وخضعت العلاقات التجارية والثقافية بين مصر والهند لتقلبات الأحوال بسبب عداوة المملكة السلوكية لمصر ، غير أنه عندما أغلقت الطرق السلوكية في وجه التجارة المصرية استطاعت مصر أن تتصل بالهند عن طريق البحر الأحمر وجزيرة العرب . ولم تكن الرحلة البحرية إلى الهند عبر باب المنذب والبحر العربى سهلة أو سليمة العواقب قبل اكتشاف الرياح الموسمية . وليس بعيداً أن البحارة غير اليونانيين عرفوا تلك الرياح منذ مدة طويلة . ولكن معرفتهم هذه لم تصبح في متناول يد اليونانيين حتى عصر هيالوس (حوالى ٧٠ ق.م)^(١٦) .

وانتهت السيادة اليونانية نهائياً في الهند قبل بداية العصر الميلادى ، لكن التجارة استمرت بطرق متعددة . وأفضل سبيل للتدليل على أهمية تلك التجارة في نهاية العصر الهلنسى أن نتذكر اقتراح كليوباترا بترك البحر المتوسط والسيطرة على البحار الهندية ، وأشار تارن إلى هذه العبارة بقوله : « إن كليوباترا لم تكن تتحدث حديث خرافة ، فلو أنها نفذت اقتراحها ، لسبقت ألبوكرك » (١٧) . وكان خلفاء الإسكندر الوحيدون الذين اشتهروا شهرة أسطورية هما مناندرس وكليوباترا واستحق كل منهما شهرته الفائقة .

كتاب ميليندا بأنها الهندى

هذا الكتاب حوار بين الملك ميليندا والراهب ناجا سينا، حيث يسأل الملك فيه كثيراً من الأسئلة تتناول نقطاً متعددة تتعلق بالمذهب البوذى ويلاحظ أن متن الميليندا الكامل كما هو موجود بلغة البالى طويل جداً ، ولكن الأصل القديم - الذى يتكون من مقدمة وثلاثة كتب أقصر بكثير (١٨) . وكتب هذا الأصل القديم خلال القرون الأولى من العصر الميلادى . ومن المحقق أنه كتب قبل القرن الخامس ، وذلك لأنه توجد نسختان منه فى رواية التريباتاكا الصينية (١٩) ، وهاتان الترجمتان الصينيتان أعدتا خلال حكم أسرة تشن الشرقية (٣١٧ - ٤٢٠) . لامن النص البالى الذى تملكه ، بل من نص براكرت الذى يحتمل أن يكون أقدم من السابق .

ووقع ذلك الحوار فى مدينة ساجالا ، عاصمة الملك ميليندا فى البنجاب ، وبخضوع عدد من اليونانيين وليس من شك أن ميليندا هو مناندرس ، وربما يجد الباحث فى هذا الكتاب عدداً من الإشارات اليونانية الأخرى (أو كلمات مشتقة من اليونانية) (٢٠) . ولعل بداية الحوار أكثر حيوية أو بعبارة أخرى أقل مغالاة ومبالغة من كتابات هندية أخرى . ومع ذلك ، فإن كتاب ميليندا بأنها بوذى هندى ولا ريب ، وهو ليس جزءاً من القانون البوذى الدينى ، ولكنه قطعة رائعة من الأدب البوذى ، وتمتد قراءتها الباحث بقسط وافر من المعرفة . والكتاب

يختلف بكل معنى الكلمة عن الكتابات اليونانية في القرون الأولى من العصر الميلادى . على أن مقارنة الكتابات البوذية بالكتابات المسيحية الدينية التى كتبت فى نفس العصر تقريباً - مثل كتابات الآباء المسيحيين الأولين - تكون مقارنة غير عادلة لأنها تكشف لنا عن فروق عميقة الغور .

ولم يكن مؤلف كتاب الميلينداپانها على معرفة باللغة اليونانية أو آدابها، وبقى كتابه مجهولاً تماماً فى الغرب حتى العصور الحديثة ، على حين اشتهر فى العالم البوذى شهرة عظيمة ، ومن الدليل على ذلك عدد النصوص التى سبق ذكرها المكتوبة بالبراكرتية والبالية والصينية والترجمات باللغات السنغالية والبورمية والكورية والأنامية .

ونشر فيلهلم ترنكر (لندن ١٨٨٠) المتن البالى من كتاب ميلينداپانها . كما نشر بول ديمفيل النسختين الصينيتين فى « مجلة المدرسة الفرنسية بالشرق الأقصى ، العدد ٢٤ ص ١ - ٢٥٨ سنة ١٩٢٤ » .

ونشر الترجمة الإنجليزية للمتن البالى ت . و . ريس دايفلز فى المجموعة التى عنوانها « الكتب المقدسة لدى الشرق (١٨٩٠ ، ١٨٩٤) الجزءان ٣٥ و ٣٦ » وأعد لويس فينو ترجمة فرنسية للجزء القديم من المتن البالى وطبعت هذه الترجمة فى باريس سنة ١٩٢٣ .

وتتناول جميع المؤلفات فى تاريخ الأدب الهندى كتاب الميلينداپانها ، فانظر مثلاً كتاب موريتس فينترتس « تاريخ الأدب الهندى » المطبوع فى ليبترج سنة ١٩٢٠ الجزء الثانى ص ١٣٩ - ١٤٦ . وانظر كذلك ترجمته الإنجليزية طبعة كالكتا سنة ١٩٣٣ الجزء الثانى .

بعض الملاحظات التمهيديّة عن تبادل الآراء العلميّة

تتعلق أنواع التبادل التى تكلمنا عنها بالأدب ، وربما يتساءل القارئ عما إذا كانت هناك أنواع أخرى من التبادل المتعلق بالآراء العلميّة . وينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن المعتقدات الدينيّة . أو الأفكار الخياليّة الأدبيّة ،

أو البواعث الفنية أسرع في انتشارها من العلوم وبخاصة العلوم المجردة . وربما تكون هناك حاجة عامة شديدة للمعرفة ، ولكن هذه الحاجة تشبع بسهولة بالمعرفة الحاطئة أكثر مما تشبع بالحقيقة ، فاستطاعت الخرافات ، كعلم التنجيم مثلا أن تنتشر بين القريب والبعيد ، على حين لم تستطع العلوم شيئا من ذلك ، وسوف نرى بعض حقائق غريبة في الفصول التالية هنا .

وإذ سبق للعقول اليونانية أن استوعبت أحسن ما قدمته مصر وبابل للعالم من معرفة ، لم يستطع اليونان أن يضيفوا إلى ذلك شيئا يذكر في القرون السابقة على التاريخ الميلادى . ومع أن المعارف الفلكية التي ظهرت خلال حكم السلوكيين في بلاد ما بين النهرين تضمنت الكثير من المعلومات الجديدة ، فإن هذه المعلومات لم تنتقل غرباً إلى بلاد اليونان ، ولذا بقيت نظريات السلوقيين عن القمر والكواكب مجهولة جهلاً تاماً في أوروبا حتى إنها لم تؤثر في أى تقدم فلكى هناك . واشتملت ألواح مسمارية لم يتم حل رموزها إلا حديثاً على تلك المعارف السلوكية المدهشة (سنة ١٨٨١ وما بعدها)^(٢١) . على أن هيبارخوس (النصف الثانى من القرن الثانى ق . م .) استخدم بعض هذه المشاهدات الفلكية البابلية التي سوف نتناولها هنا فيما يلى :

وفما يتعلق بالنظريات الرياضية التي عرفت في الشرق القديم — ولم تكن أضيفت بعد إلى حصيلة علوم اليونان — وصلت هذه النظريات إلى اليونان عن طريق مصر ، ولكن كان ذلك بعد ظهور المسيحية . وكان ذلك عن طريق كتابات اثنين من الإسكندرية هما هيرون^(٢٢) وديوفانتوس (النصف الثانى من القرن الثالث) .

ثم ماذا نقول هنا عن انتقال الأفكار العلمية في الاتجاه الآخر ؟ كان هذا في أضيق الحدود ، فجنود مقدونيا واليونان الذين غزوا الشرق انحصر اهتمامهم في الحرب والإدارة ، وفي المكاييد السياسية والاستقلال الاقتصادى المحلى أكثر مما انحصر في العلوم . غير أنه من المؤكد أنهم أدخلوا تحسينات على ما يسميه العلماء الألمان علوم فن الحرب ، ومن المحتمل أنهم أدخلوا تحسينات فنية كذلك على الفنون والصناعات الأخرى ، ولا بد أن أطباء يونانيين صاحبوا أولئك الجند

وغيرهم من اليونانيين الذين ذهبوا إلى الشرق بقصد الاستيطان . وسوف يأتي ذكر بعضهم في فصول أخرى من هذه الدراسة . وهناك استثناء جدير بالملاحظة هو الفلكي سايوكس (النصف الأول من القرن الثاني ق . م) ، هو الذي قام بشرح آراء أريستارخوس الفلكية في بابل .

وفي الشرق عاش أعلام من رجال العلوم الذين حافظوا على التقاليد اليونانية ولكنهم ينتمون في الغالب إلى عصر ما بعد المسيحية ؛ وذلك لأن موجات الفكر العلمى الرئيسية اندفعت شرقاً بسبب التعصب المسيحى . ولذا لم يظهر علم الفلك اليونانى في الهند إلا في وقت متأخر جداً . وكان السبب الرئيسى في تأخر بدايته أنه جاء بعد بطليموس (النصف الأول من القرن الثانى) ولم ينشر باللغة السنسكريتية حتى أيام ظهور بحوث سيدهانتا (النصف الأول من القرن الخامس و قبل ذلك) .

شكل ٢ - أمون رع ، إله الشمس ، هذا الشكل جزء من نقش على الجرانيت يرجع إلى أيام بطليموس الثانى فيلادلفوس (٢٨٥ - ٢٤٧) . ومن المحتمل أن هذا الجزء مأخوذ من معبد إيزيس وبهبيت الحجارة في وسط اللاتا وهو موجود الآن في متحف الفنون بمدينة بوسطن .

وفي هذا الشكل لا تظهر الريشتان الطويلتان فوق تاج الإله ؛ وهما الريشتان اللتان تساعدان على معرفته . ويوضح النقش على الصدر مذبحاً صغيراً ، ومعناه هنا الحماية الإلهية . ويرى الإله مسكاً برمز الحياة في يده اليسرى ، ومن المحتمل أن الإله كان مسكاً في يده اليمنى بصولجان الحكم الذى يعنى « السيادة » . انظر :



ومجمل القول ، أن المهاجرين اليونانيين كانوا قلة قليلة (٢٣) في عصور ما قبل المسيحية ولم يكن اهتمامهم بالعلوم والدراسات اهتماماً كبيراً حتى يمكن أن يؤثر في العقول الشرقية أو يغيرها ، ومن الناحية الأخرى لم يشعر الآسيويون أنهم بحاجة إلى الفكر اليوناني (وماذا كانت حاجتهم إلى الفكر اليوناني ؟) إذ رفضوا ذلك رفضاً فطرياً ، أو اقتصر منه على ضروب من السلوك والعادات السطحية . ولم يتشربوا يوماً من الأيام شيئاً من الجوهر والروح الذي يهدى إلى المعرفة . والواقع أن قصور الآسيويين الذاتي لحدود له . وكما يقول طارن : « إن آسيا عرفت أنها تستطيع أن تفوق اليونانيين في شؤون الروح ، وهذا ما حدث بالفعل » (٢٤) .

مصر البطلمية

عقب وفاة الإسكندر ، أصبح بطلميوس (٢٥) المقدوني بن لاجوس والياً على مصر . وكان بطلميوس هذا صديقاً للإسكندر منذ الطفولة ، ور بما كان أحياناً غير شقيق له (٢٦) .



شكل ٣ - صورة بطلميوس الأول سوتر (والياً من سنة ٣٢٣ ثم ملكاً من سنة ٣٠٥ إلى سنة ٢٨٥) وهو يقدم القرابين إلى هاتور ، إلهة البهجة والحب ، التي تقابل أفروديت عند اليونان . والصورة تبين الملك (على اليمين) ، ونعرف أنه الملك من شعار الملكي وهو الحية التي على جبينه ، ومن الخرطوشة الموجودة خلفه فضلاً عن النقوش المرسومة داخلها عرفنا ألقابه التي تسبق اسمه ، وهي « الملك الذي اصطفاه رع ، وحبيب آمون » ، على حين كتب الاسم «بطلميوس» في الناحية الأخرى وكان النقش الغائر موجوداً في الأصل في بلدة طرانة بالقرب من كفر داود في غرب الدلتا ، وهو موجود الآن في متحف بوسطن للفنون الجميلة .

واشترك بطلميوس في الحملات التي قام بها الإسكندر على آسيا . وكان أحد كبار قاداته وأعز أصدقائه . واستطاع بطلميوس بفضل ذلك أن يكتب مذكراته الخاصة - التي فقدت الآن - والتي كانت أثنى مصدر رجوع إليه إريافوس في كتابة تاريخه عن حملة الإسكندر الأكبر . ومد بطلميوس أطراف ولايته بغزو فلسطين وجنوب سوريا حوالي ٣٢٠ ق . م ، وباستيلائه بعد ذلك على ساحل جنوب غربي الأناضول وعلى جزيرة كوس . واتخذ بطلميوس لقب الملكية سنة ٣٠٦ ، وحذا حذوه القادة الآخرون في نفس الوقت تقريباً ولنفس السبب . وكان بطلميوس مؤسس أسرة البطالمة ، وهي الأسرة التي قامت على تنظيم مصر البطلمية ، وكان بطلميوس جندياً وإدارياً قديراً ، وهو السبب فيما تمتعت به مصر من رخاء وما تمتعت به الإسكندرية من نهضة ، وامتد حكمه حتى سنة ٢٨٥ ، وتسمى باسم بطلميوس سوتر أي المنقذ .

ورزق بطلميوس بولد من برينيك ، آخر زوجاته وأكثرهن محبة إلى قلبه . واسمه بطلميوس فيلادلفوس ، وكان مولده في جزيرة كوس . وهو الذي خلف أباه على العرش سنة ٢٨٥ واستمر في الملك حتى سنة ٢٤٧ . ثم إن فيلادلفوس اقتصى أثر والده في بذل الجهود والعناية الفائقة بالنهضة العلمية حتى إنه يصعب الفصل بين جهود كل منهما ، وبعبارة أخرى حقق بطلميوس الثاني جميع ما بدأه بطلميوس الأول ، ووسع بطلميوس فيلادلفوس ممتلكاته وقوى سلطته وقام بزيارات كثيرة لتعرف الأحوال في مصر العليا ، كما وسع العلاقات مع الحبشة والبلاد التي تجاور البحر الأحمر ، وبلاد العرب . وحتى الهند .

وكان ثالث الملوك البطالمة هو بطلميوس يوثرجيتيس (الخبير) ، وهو الذي حكم من سنة ٢٤٧ إلى سنة ٢٢٢ والذي بلغت الأسرة البطلمية على يديه أوج قوتها ؛ إذ غزا بلاد ما بين النهرين . وبابل ، وسوسيانا ، وأحضر معه إلى مصر كمية هائلة من الغنم ومن بينها تماثيل للإلهة المصرية التي أخذها من مصر قميبر الثاني ملك الفرس (٥٢٩ - ٥٢٢) . ثم بدأ تدهور الأسرة البطلمية على يد بطلميوس فيلو پاتر الذي تولى الملك من سنة ٢٢٢ إلى سنة ٢٠٥ . ولسنا بحاجة إلى

ذكر ملوك البطالمة المتأخرين ، ويكفى أن نعرف أن ملوك البطالمة كانوا خمسة عشر ملكاً ، وأن آخرهم – وربما أكثرهم شهرة – هي الملكة كليوباترا ، وهي امرأة على جانب من الجمال وذات كفاية ممتازة ، وقدرة غير عادية على التحدث بعدة لغات (٢٧) .

وأثنى الرومان على الملكة كليوباترا ما وسعهم الثناء على غير رغبة منهم ، وخافوها وهي امرأة ، كما لم يخافوا أحداً منذ هانيبال (٢٨) . وكان هدف كليوباترا أن تكون إمبراطورة العالم الروماني . وكان من الممكن أن تنجح لو أن حبيبها يوليوس قيصر عاش ، ولم يقتله الرومان اغتيالاً سنة ٤٤ . ولجأت كليوباترا إلى أنطونيوس ، لكن موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق . م . وضعت نهاية لأحلامها ، وفي السنة التالية انتحرت كليوباترا (٢٩) خشية أن تساق إلى روما أسيرة : وكان آخر البطالمة بطلميوس الرابع عشر واسمه قيصر بن قيصر وكليوباترا ، وقتل هذا الملك سنة ٣٠ ق . م . بأمر أوكتافيوس (أغسطس) ، وكان في السابعة عشرة من العمر ، وهو في العصر الهلنستي يشبه النسر الصغير ابن نابليون . ومنذ ذلك الحين باتت مصر ولاية رومانية ، ولم يستمر العصر الذهبي الهلنستي إلا قرناً واحداً وهو القرن الثالث . ولكن كان قرناً كافياً لحفنة قليلة من نوابغ الرجال لأن يقوموا بأعمال خالدة .

وهنا يسأل الباحث : أى نوع من البلاد كانت مصر تحت حكم ملوك البطالمة ؟ لا أقصد الناحية الجغرافية الطبيعية : فصر لم تتغير منذ أيام الفراعنة ، فهي منحة رائعة من النيل . وجغرافية مصر وجوها الطبيعي لم يتغير ، ولكن ماذا نقول عن الجو السياسي ؟ ربما يدعى الباحث أن الجو السياسي كذلك لم يتغير كثيراً ، فيما عدا أن سادة البلاد وأصحاب الأراضي ومن عليها من الناس لم يعودوا مصريين ، بل مقدونيين ويونانيين .

وكان اليونانيون مهتمين أشد الاهتمام بمصر منذ عهد بسماطيك الأول ، رأس الأسرة السادسة والعشرين أو الأسرة الصاوية (٦٦٣ – ٥٢٥ ، حكم بسماطيك من ٦٦٣ إلى ٦٠٩) . وأسس اليونانيون جاليات لهم في الدلتا وازدهرت



شكل ٤ - تمثال بطلميوس الثاني
فيلادلفوس في الفاتيكان - والتمثال
مصنوع من الجرانيت الأحمر ويبلغ
ارتفاعه ٢,٦٦ متراً بالقاعدة ، وبغيرها
٢,٤٦ ، وفيلادلفوس بن بطلميوس
الأول من زوجته برينيكّا الأولى، وهوثاني
ملوك الأسرة البطلمية ، من سنة ٢٨٥ إلى
سنة ٢٤٦ .

تزوج فيلادلفوس أرسنوى الثانية
حوالى سنة ٢٧٦ ، ويدل عليه أن للتمثال
نقشين بالهيروغليفية أقصرهما يقول :
« ملك مصر العليا والسفلى . . ابن رع
بطلميوس عاش إلى الأبد » .

Biuseppe Botti, Pietro Romanelli
le sculture del Museo Gregoriano
Egizio
(Monumenti vaticani di archeo-
logiase d'arte, vol. 9; Vatican,
1951) no. 32, pp. 24 — 25, Pls.
XXII and XXIII).

شكل هـ - تمثال الملكة ارسنوى
 فيلادلفوس . وهذا التمثال موجود في
 الفاتيكان . والتمثال مصنوع من حجر
 الجرانيت الأحمر طوله ٧٠ و ٢ مترا
 (٢,٤٨ بدون القاعدة) . وهذه الملكة
 (حوالي ٣١٦ - ٢٧٠) ابنة لبطلميوس
 الأول من زوجته برنيكا الأول وهى
 شقيقة بطلميوس الثانى وزوجته فى
 نفس الوقت . وهناك نقشان هيروغليفيان
 يدلان عليها . أقصرهما يقول : « الابنة
 الحقيقية ، والشقيقة الحقيقية ، والزوجة
 الحقيقية ، وسيدة الأرضين ، ارسى ...
 فيلادلفوس » .

(Giuseppe Botti, Pietro Romanelli, Le sculture del Museo Gregoriano Egizio

(Monumenti vaticani di archeologia e d'arte, vol. 9., Vatican, 1951), no. 31, pp. 22 — 23, pls. XXII and XXIV.)

هاتان الصورتان مأخوذتان بإذن من
 أمناء متاحف الفاتيكان . ومن الواضح
 أن هذين التمثالين نحتا فى وقت واحد ،
 غير أن الصورتين اللتين أخذتا فى أوقات
 وأحوال مختلفة تبدوان مختلفتين تمام
 الاختلاف . وهذان التمثالان لم يقصد
 هما أن يكونا صورتين طبق الأصل ،
 بل رمزين لملك وملكة من البطالمة .



تلك الخاليات رغم عدم مبالاة المصريين أو عداوتهم^(٣٠) وفي عهد خامس ملوك تلك الأسرة ، وهو أحمرس الثاني (٥٦٩ - ٥٢٥) - الذى سماه اليونانيون أماسيس - كان التجار اليونانيون يتركزون فى مدينة واحدة هى نوقراطيس ، الواقعة على المصب الكانونى للنيل فى غرب الدلتا ، وغدت تلك المدينة على درجة كبيرة من الرخاء ، وكانت لها كل مقومات المدينة اليونانية ، حيث ملكت كل من الخاليات من مختلف المدائن اليونانية معابد خاصة بها . وكان أماسيس ملكاً طيباً كريماً فى معاملته لليونانيين ، يتمتع بمحبتهم ، غير أن كل امتياز حصلوا عليه كان متوقفاً على رضا المصريين ، وكثيراً ما تسبب فى خلق غيرة شديدة .

ثم انعكس الموقف بعد اعتلاء البطالمة العرش ، فلم يعد اليونانيون ضيوفاً على ترحيب أو كراهية ، ولكنهم أصبحوا سادة . غير أن البطالمة استمروا فى اتباع التقاليد المصرية القديمة ، فكانوا هم أصحاب الأرض وملاك كل شىء ، ثم لأنهم كانوا مقدسين ومؤهلين ، وكان الملك البطلمى هو الدولة . وينبغى أن نضيف إلى ذلك أن البطالمة الأولين على الأقل كانوا على جانب من المقدرة فى الإدارة ، وبفضلهم عم الرخاء مصر إلى درجة لم يسبق لها مثيل من قبل .

وخلال حكم النصف الأول من عصر ملوك هذه الأسرة ، اتصفت الإدارة بالكفاية بوجه عام ؛ إذ كان النظام محفوظاً ، وفيضان النيل السنوى موضع عناية ، والرعى فى تحسن . وأمكن ضبط المحصولات الزراعية ، وبنيت المخازن لحفظها ، واستوردت أنواع جديدة من الحيوان للعمل فى الأرض ، كما استوردت جنود جديدة للزراعة فى جو مصر ، وازدادت المساحة المنزرعة . ودخلت أنواع جديدة من الحرف . وانتظمت العملة والتجارة وأعمال البنوك^(٣١) على وجه أفضل واتسعت التجارة الخارجية اتساعاً كبيراً . ولذا كانت مصر تصدر الحبوب ونبات البردى وألياف التيل والزجاج والمرمر . وكان استخدام الحمل من أعظم المستحدثات الاقتصادية المنسوبة إلى بطلميوس فيلادلفوس ، وربما جاءت الجمال إلى مصر قبل البطالمة ، ولكن ذلك لم يكن قبل عصرهم بزمان طويل^(٣٢) . ثم إن بطلميوس أدخل نظاماً للبريد على النمط الفارسى ، وكانت الجمال لا يعادها شىء لهذا

الغرض، نظراً لقدرتها على السير بسرعة كبيرة ، مع احتمال مشاق السفر ، والقدرة على نقل الأحمال الثقيلة . وكانت الصناعة الوحيدة التي يبدو أن الحكام اليونانيين أهملوها هي التعدين ، وعلى أى حال لم يعمد البطالمة إلى زيادة الثروة المعدنية ، ولم يستغلوا المناجم المعروفة استغلالاً حسناً كما فعل الفراعنة من قبلهم (٣٣) . وذهبت الأرباح الزراعية والتجارية والصناعية كلها طبعاً إلى جيب الملك ومجموعة صغيرة من الشركاء . أما الفلاحون فلم يحصلوا على شيء أكثر مما يقيم أودهم ويبقيهم على قيد الحياة . وفي بداية العصر البطلمي - لم يرق الفلاحون بأية ثورة ، لأنهم ربما كانوا يعاملون معاملة أفضل قليلاً عما كانوا يعاملون من قبل ، ولأنه كانت تعوزهم الإمكانيات المادية والروحية (٣٤) .

وإذ توحدت مصر وفلسطين تحت الحكم الفارسي ، واستمرت على تلك الحال تحت حكم البطالمة الأولين حتى سنة ١٩٨ ق.م. فن الطبيعي أن يهاجر كثير من اليهود إلى مصر ، ولاسيما بعد أن صارت مصر أكثر رخاء ، ومنحت فرصاً أعظم لأولئك المهاجرين ، ويحتمل أن أغلب المتوطنين من اليهود في مصر في القرن الثالث كانوا من مواليد البلاد المصرية ، وبما أن الإدارة العليا لأى عمل من الأعمال كانت في أيدي اليونانيين ، فسرعان ما اصطبغ اليهود بصبغة يونانية ونسى بعضهم استعمال اللغة العبرية ، وقلدوا اليونانيين في عاداتهم وأسماهم التي تتضمن مقاطعها لفظ تيوس أى الرب مثل ثيودوتوس أو دوروثيا .

ولم يكن التعايش بين الجاليات اليونانية واليهودية سوى مظهر واحد من عدة مظاهر؛ ففي أثناء الحكم اليوناني أصبحت مصر أهم بقعة يختلط فيها الشرق بالغرب. وشملت الإمبراطورية البطلمية في أوج اتساعها ، لا مصر فحسب ، بل شملت ليبيا ، وأجزاء من إثيوبيا ، وبلاد العرب ، وفينيقيا ، وجنوب سوريا ، وقبرص وبعض جزر السكلاديز ، واجتذبت مصر عناصر من جميع تلك البلاد . غير أنه من الطبيعي أن يكون الجزء الأكبر من السكان من المصريين ، وأن تكون الطبقة العليا من المقدونيين ، واليونانيين ، (٣٥) وكان هناك كثير من اليهود ، ولكن كان هناك أيضاً شرفيون آخرون ، وسوريون ، وعرب ، وأبناء بلاد ما بين

النهرين ، وفارسيون، وبكتريون ، وهنود ، وأفريقيون - ومن هؤلاء سودانيون وصوماليون وإثيوبيون .

وكانت الأمم الهلنستية على استعداد للترحيب بالعلماء الأجانب ، من حكماء الإيرانيين وفلاسفة الهنود وكثيرين غيرهم ، وذلك لشدة إقبال تلك الأمم على المعرفة الروحية ، فضلاً عن شعورها بنوع من الجوع الروحي . وفتح اليونانيون الذين عاشوا في الشرق قلوبهم لعبادة الآلهة الفريجية « الأمم العظمى » وللإله ميثاس ، وللآلهة المصرية وبخاصة إيزيس وأوزيريس . وينبغي أن نذكر أن الرغبة في الاتصال بديانات حية كانت رغبة كبيرة في بلاد اليونان منذ قديم الزمان ، ويشهد بذلك وجود العبادات الغامضة كالأليوسينية والأورفية والديونيسية وانتشارها بين اليونانيين . ومنذ أيام أرسطو وأبيقور . فقدت الأساطير اليونانية القديمة مكانتها ، غير أن ديانة النجوم التي حلت محلها إلى حد ما كانت متعذرة الفهم وتعوزها الحرارة ليقنع بها عامة الناس ... وكان اليونانيون الذين استقروا في آسيا أو في مصر بعيدين عن هياكلهم الرئيسية القديمة ، وأدى ظمؤهم الديني إلى شدة تأثرهم بالطقوس الدينية الشرقية ؛ إذ كانوا يحضرون لمشاهدة الأعياد التي يحتفل بها من حولهم من الناس ، وكانت هذه الأعياد تترك أثراً عميقاً فيهم . وساعدت الزوجات الشرقيات مساعدة كبيرة في تقريب الطقوس الدينية الشرقية المقدسة إلى قلوب أزواجهن اليونانيين ، وبذلك ازداد عدد المتحولين إلى الديانات الشرقية تدريجاً .

وكانت عملية التوفيق بين مختلف العقائد الدينية ظاهرة بوضوح وقوة وخاصة في مصر ، وبدأت تلك العملية منذ البداية سنة ٣٣١ ق . م . حين زار الإسكندر الأكبر معبد أمون في واحة سيوة^(٣٦) . وأعلن الكاهن الأكبر بالمعبد بأن الإسكندر ابن للإله زيوس أمون^(٣٧) . واعترف المصريون عموماً بمكانة حكاهم المقدسة ، ولذلك كان طبيعياً أن يدعى ملوك البطالمة الألوهية ، ويطلبوا لأنفسهم العبادة والقداسة وأن يجيبهم الناس إلى ذلك . وأرهبت الاحتفالات المنمقة التي كانت تقام في المعابد المصرية البطلمية جميع الرعايا اليونانيين في مصر . وكان

المملوك على استعداد للمشاركة مع الآلهة المصرية الأخرى ، وكان من المستحيل عليهم ألا يساهموا في محبة دين يولهم . وتبنى البطالمة جميع العادات الفرعونية ؛ مثل زواج الإخوة الملكيين من أخواتهم ، فتزوج بطلميوس الثانى فيلادلفوس من شقيقته ارسنوى الثانية ، لأن المملوك المقدسين يبلغون من العظمة ما يمنعهم من الزواج من خارج أسرهم .

يضاف إلى ذلك أن كل أسرة من الأسر الملكية في مصر جرت على تركيز اهتمامها نحو أحد الآلهة الأقدمين أو أدخلت لها جديداً ، وبهذه الروح تركز اهتمام البطالمة نحو الإله سارابيس ، غير أنهم لم يخترعوا هذا الإله ، بل إنهم أدمجوا عبادة أوزيريس تدريجياً في عبادة العجل المقدس أبيس^(٣٨)، وصار أوزيريس وأبيس معاً موضع العبادة في معبد السارابيون^(٣٩) في بلدة ممفيس (سقارة) .

وكانت عبادة سارابيس هلنستية تماماً ، لأنها جمعت بين عناصر مصرية وعناصر يونانية ، ويرجع الفضل في هذه العبادة الجديدة نقلا عن بلوتارك^(٤٠) إلى مانيتون (النصف الأول من القرن الثالث ق.م) ، وهو كاهن من كهنة معبد هليوبوليس (عين شمس) ، بالاشتراك مع تيموثيوس وهو كاهن من كهنة معبد ديمتير اليونانى ، فضلا عن ديمتريوس الغاليرى . وهو الذى شفاه الإله سارابيس من العمى ، ولذا كتب الأناشيد في مدحه . وتدل النقوش القديمة على ظاهرة التوحيد بين الإله الرومانى زيوس والإله سارابيس ، أى إنه صار هناك إله واحد اسمه زيوس سارابيس . وتنضح الصفة الهلنستية في هذه الديانة البطلمية المصرية الجديدة كل الوضوح بحسب اللغة اليونانية التى كتبت بها النصوص الدينية الخاصة بهذه الديانة ، كما تنضح هذه الصفة الهلنستية في الفنون التى غدت يونانية أكثر منها مصرية ، بل يونانية خالصة ، وذلك باستثناء الكتابة الهيروغليفية .

« وأقدم سارابيون » هو معبد أوزورابيس بسقارة ويحتوى على مقابر تحت سطح الأرض لعجول أبيس ، اكتشف أوجست ماريث هذه المقابر سنة ١٨٥١ ، ويرجع تاريخ أقدم هذه المقابر إلى أمتحتب الثالث (١٤١١ - ١٣٧٥) الذى يعرف لدى اليونانيين باسم ممنون . وبالقرب من هذا المعبد بنى نكتانيبسيس الثانى

(٣٥٨ - ٣٤١) سارابيون آخر ، ويدل هذان المعبدان على قدم عبادة أوزورابيس وطول استمرارها .

وأقيمت المعابد السيرابية خلال العصر الهلنستي في المدن المصرية الكبرى ، ومنها معبد أبي قير الذي كان مقصد كثير من الناس للشفاء من الأمراض على ساحل البحر شرقى الإسكندرية ، وكان طبيعياً أن يكون سارابيون الإسكندرية أهم تلك المعابد ، وموضعه الربوة التى لا يزال «عمود بومبي»^(٤١) قائماً عليها حتى العصر الحاضر . وربما يكون هذا العمود جزءاً من السارابيون ، وربما أمر بحفظه أو بنائه في هذا المكان الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥) أو ثيوفيلوس^(٤٢) أسقف الإسكندرية ، من باب إحياء ذكرى هدم معبد السارابيون وانتصار المسيحية سنة ٣٩١ ميلادية .

والمعروف أن عبادة سارابيس أخذت في الزوال وقتذاك ، وهى بالضرورة عبادة بطلمية ، ولذا حل محلها في العصور الرومانية عبادة إيزيس على نطاق واسع . ومن هذا يتضح أن انتصار الأسقف ثيوفيلوس على عبادة سارابيس لم يكن انتصاراً على عبادة سارابيس بقدر ما كان انتصاراً على الوثنية بوجه عام .

نشأة مدينة الإسكندرية

لم تكن مراكز الجاليات اليونانية التى تطورت فيها الحضارة الهلنستية في مصر تحت رعاية البطالة سوى جزء صغير من البلاد المصرية . ولم يكن ذلك سوى استمرار لتقليد قديم ، ففي أثناء حكم الأسرة السادسة والعشرين أسس الملك أحمس الثانى (أماسيس) مدينة نوقراطيس ، وأجبر التجار اليونانيين وقتذاك على ألا يقيموا في مكان آخر . ثم أنشأ الإسكندر مدينة جديدة سميت « الإسكندرية » نسبة إليه ، وأقام بطلميوس سوتير مدينة بطلومايس هيرميو في مصر العليا ، وكانت هناك مراكز يونانية أخرى . وبينما هيمن الملوك البطالة على الدولة بطريقة تشبه هيمنة أصحاب الأراضى على ممتلكاتهم حصلت الجاليات اليونانية على قدر من الاستقلال الإدارى وفقاً للتقاليد اليونانية .

وقيل إن كثيراً من المدن أسسها الإسكندر الأكبر في زمنه ، أو إنها تأسست

تخليداً لذكراه، وحملت هذه المدن جميعاً اسم «الإسكندرية». ومن هذه المدن سبع عشرة مدينة، كلها في آسيا تقريباً، وكثير منها يقع فيما وراء نهر دجلة، ومن هذه مدينتان اثنتان على نهر السند، ومدينة ثالثة على نهر جيلوم واسمها الإسكندرية بوكيفالا^(٤٣). ومن هذه المدن كذلك مدينة فيما وراء نهر جاكسارتيس (جيحون) وتسمى الإسكندرية اسخاقى أو الأخيرة^(٤٤). واندثر معظم تلك المدن، أو أضحي عديم الأهمية، على حين لم تلبث المدينة الوحيدة التي أسسها الإسكندر في مصر سنة ٣٣٢ ق. م أن تبوات مكانة كبرى بفضل رعاية البطالمة، وظلت هذه المدينة من أعظم مدن غرب آسيا وأكبر ميناء في شرق البحر المتوسط حتى العصر الحاضر.

ويقال إن الإسكندر أسس الإسكندرية، غير أن ذلك لا يستطيع أن يعنى سوى أنه أعطى تعليمات عامة لإقامة مدينة جديدة في الطرف الغربي من دلتا النيل، ولم يكن باستطاعة الإسكندر أن يفعل أكثر من ذلك؛ لأنه لم يلبث أن غادر مصر بعد ذلك بقليل. أما المؤسس الحقيقي لمدينة الإسكندرية فهو بطلميوس سوتير؛ إذ كانت هذه المدينة لاتزال صغيرة لاتصلح لاستخدامها عاصمة عندما تولى إدارة البلاد المصرية، فاتخذت حكومته أول مقر لها في ممفيس. ثم حصل بطلميوس سوتير على جثمان الإسكندر بعد قليل من وفاته في بابل سنة ٣٢٣ وأحضره إلى ممفيس. ثم نقل بطلميوس سوتير جثمان الإسكندر إلى الإسكندرية، بعد أن تم بناؤها واتسعت وصارت عاصمة مملكة البطالمة، وبنى بطلميوس سوتير بالإسكندرية معبداً لاستقبال جثمان الإسكندر وسماه سينا - أى العلامة - ومن المحتمل أن يكون ملوك الأسرة البطلمية دفنوا واحداً بعد آخر في نفس هذا المعبد المقدس، وبذلك أصبحت مقبرة سينا نوعاً من المدافن اليونانية، ولم يبق من هذه المدافن أى أثر معروف، وموقعها لا يزال مجهولاً حتى العصر الحاضر^(٤٥). ومن الغريب أن هذه العاصمة المصرية لم تكن جزءاً من مصر الفرعونية، واسمها القديم باليونانية أو اللاتينية «الإسكندرية بالقرب من مصر». ولم يكن هذا صحيحاً من الناحية الجغرافية، فالإسكندرية تقع في داخل الجزء الشمالى

الغربي من البلاد المصرية ، لا في نهايته ، بل دليل أن معبد آمون الذى زاره الإسكندر يقع في الجنوب الغربي من الإسكندرية . غير أن التسمية القديمة « بالقرب من مصر » تعبر عن حقيقة سياسية ، فالإسكندرية لم تكن عاصمة مصرية أصيلة ، ولكنها كانت المقر الملكي لإدارة الدولة البطلمية والجاليات اليونانية ، وتشبه تسميتها القديمة قولنا « هونج كونج بالقرب من الصين » أو « جوا بالقرب من الهند » ، وذلك لأن الغالبية العظمى من سكان هاتين المدينتين من الصينيين . والأقلية الضئيلة فيها من الإنجليز . فهي في الصين ومع ذلك فهي خارجة عنها . وفي المدينة الثانية من هاتين المدينتين يعيش عدد كبير من الهنود ، وعدد قليل من البرتغاليين ، فهي في الهند ومع ذلك فلا تتبعها .

وتألف سكان الإسكندرية من طبقة حاكمة قليلة العدد من المقدونيين واليونانيين^(٤٦) ، وعدد عظيم من الوطنيين المصريين . وبالإضافة إلى ذلك . كانت هناك جالية كبيرة من اليهود (لأن فلسطين كانت جزءاً من المملكة البطلمية حتى حوالى سنة ١٩٨ ق . م .) ، وذلك فضلاً عن عدد من الشرقيين من السوريين والعرب والهنود . والباحث لا يلبث أن يرى أن الإسكندرية القديمة مدينة تستطيع أن تقارن بمدينة نيويورك الحالية : إذ كان العنصران الحاكمان في الإسكندرية هم اليونان واليهود ، على حين يتكون العنصران الغالبان في نيويورك من البريطانيين أو الأيرلنديين واليهود .

والمقارنة بين الإسكندرية ونيويورك سليمة من نواح أخرى ؛ لأنه إذا أخذ الباحث بعين الاعتبار ما هنالك من اختلاف كبير في سرعة السفن في البحار وما تمخض عن الاختراعات الحديثة من تقريب المسافات البحرية فإنه لا يلبث أن يجد أن النسبة بين ميناء الإسكندرية القديمة وموانئ بلاد اليونان لا تختلف كثيراً عن النسبة بين ميناء نيويورك الحالية والموانئ الإنجليزية ، وكان الإبحار من بيريه (ميناء أثينا) إلى الإسكندرية رحلة بحرية تكاد تضاهى السفر في العصر الحاضر من نهر الميرزى إلى الهندسون .

وفي هذا المعنى ، كانت الإسكندرية وليدة خيال ملك عظيم لأن الإسكندر

المقدوني قدم للعالم فكرة جديدة لاحصر لتأمنها ، فنظرية اليونان عن المدينة الدولة حلت محلها نظرية وحدة العالم التي تجمع بين الاختلافات الخلقية والدينية في حضارة مدينة واحدة .

ولم تكن الإسكندرية عاصمة فحسب ؛ بل مدينة عالمية ، وكانت في ذلك هي الأولى من نوعها^(٤٧) . وكان اليونانيون مهندسين معماريين عظماء لا تقتصر عظمتهم على بناء المعابد ، بل تمتد إلى بناء مدن بأكملها . وشرح هيبوداموس الميليطي^(٤٨) الأسس المادية والروحية لتخطيط المدينة منذ منتصف القرن الخامس ق.م . ، وكان ذلك أحد مظاهر العبقورية اليونانية . ويلاحظ أن اليونانيين لم يتركوا المدن الحديثة الإنشاء تنمو نمواً عشوائياً على الطريقة التي تنمو بها مدننا الأمريكية الحديثة . وما يقال في هذا الصدد إن شوارع مدينة بوسطن الحالية حددتها الأبقار في ذهابها إلى مراعيها . ورجوعها إلى حظائرها ، وذلك على حين أن تخطيط الإسكندرية لم يكن عرضاً .

وعهد الإسكندر المقدوني بتخطيط مدينة الإسكندرية إلى دينوكراتيس الرودسي الذي كان أعظم المهندسين المعماريين في عصره ، وهو الذي صمم معبد ارتيميس الجديد بمدينة إفسوس^(٤٩) ، وهو كذلك صاحب فكرة نحت إحدى قمم جبل آثوس على شكل تمثال ضخيم للإسكندر^(٥٠) . وكان دينوكراتيس لا يزال على قيد الحياة زمن بطلميوس الثاني ، وقيل عنه إنه صمم معبداً سقفه مسلح بحجر المغناطيس لكي يبدو تمثال الملكة أرسنوى الثانية معلقاً في الفضاء ؛ وذلك تحليداً لذكرى هذه الملكة^(٥١) .

وبنيت مدينة الإسكندرية على مساحة ضيقة من الأرض يحدها من الشمال البحر المتوسط ومن الجنوب بحيرة مريوط ، ويتوسط المدينة طريقان كبيران : أحدهما طويل ، وهو الطريق الكانوبي ويمتد من الشرق إلى الغرب ، والآخر أقل طولاً من الطريق الأول ويقع عمودياً عليه . وكان مركز المدينة عند أو بالقرب من تقاطع هذين الطريقين الرئيسيين . وكانت هناك شوارع أخرى موازية لهذين الطريقين الرئيسيين على نمط رقعة الشطرنج ، واحتوت المدينة على خمسة أقسام

سميت بالحروف الخمسة الأولى من الأيجدية اليونانية التي هي أيضاً الأرقام العددية الخمسة الأولى . وكانت القصور الملكية ومجموعة كبيرة من المعابد والحدائق العامة تشغل جزءاً كبيراً من المدينة (حوالى ربعها أو ثلثها) ، وتقع المدافن والموسيون والمكتبة ، وكذلك معسكرات الحرس في هذا الحى الملكى ، الذى كان يسمى باسم بروخيون . وقامت على الطريق الكانوبى معابد ومبان عامة أخرى . وعلى التل الشرقى الذى يسمى الآن كوم الدكة كانت هناك حديقة كبيرة يطلق عليها اسم البانيون ، أى معبد الإله بان ، وعلى تل آخر كان الساراييون في الجنوب الغربى من المدينة القديمة ، ثم كانت هناك ملاعب رياضية وميادين لسباق الخيل ، وامتدت مجموعتان من المدافن إلى الطرفين الشرقى والغربى ، ونشأت الصواحي تدريجياً في الاتجاه الشرقى في سهل الحدراء (الحضرة) وعلى تلال الرمل (٥٢) . أما الموانى فسيأتى وصفها فيما يلى .

ومن العسير أن نكتب عن يقين تاريخ الإسكندرية كتابة إجمالا وتفصيلا ؛ وذلك لأن هذه المدينة اليونانية القديمة تشبه الوثيقة المكتوبة التى مسحها المسيحيون .

موانى الإسكندرية والمنارة

كان اختيار موقع لبناء مدينة الإسكندرية لتكون المدينة الرئيسية لسكنى اليونانيين بمصر اختياراً حكيماً ، وينبغى لنا أن نفترض أن اختيار الإسكندر لهذا الموقع كان بإيحاء التجار اليونانيين الذين عاشوا في مدينة نوقراطيس ، وكانوا على معرفة تامة بالأماكن المختلفة التى تصلح لهذا الغرض في دلتا النيل . ولم يكن موقع الإسكندرية مجهولاً قبل عصر الإسكندر ؛ إذ جاء ذكر جزيرة فاروس في الميناء - الذى سنعود هنا للكلام عنها - في الأوديسا (الكتاب الرابع . سطر ٣٥٥) على أنها تبعد يوماً بالبحر عن أرض مصر ، وربما كان الشاعر هومر يعنى أنها تبعد يوماً بالبحر عن الفرع الكانوبى للنيل ؛ وذلك لأن هذه الجزيرة

لاتبعد أكثر من ميل عن الشاطئ . وكان موضع مدينة الإسكندرية قرية للصيد^(٥٣) ، ولكنها لم تكن مدينة .

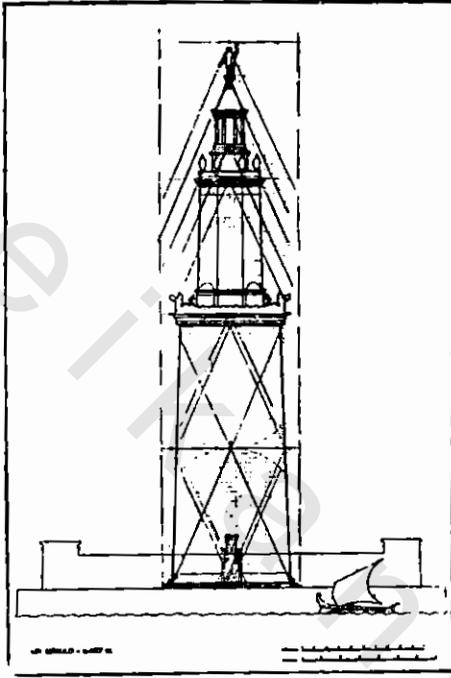
لماذا وقع اختيار الإسكندر على هذه البقعة المعزولة من الجانب الغربي للدلتا ؟ ربما يكون أحد الأسباب أن الموانئ الواقعة شرق هذا الموقع^(٥٤) كانت مهددة دائماً بخطر الانسداد من جراء الطمي الذي يجلبه النهر ، على حين كان عدم الاتصال المباشر بين الإسكندرية والنيل سبباً في نجاحها من هذا الخطر .

ونشأت المدينة الجديدة بين البحر وبحيرة مريوط التي أمكن الاتصال بالنيل عن طريقها ، ومن ثم كان للإسكندرية ميناءان : أحدهما شمال المدينة على الساحل ، والآخر جنوبها من ناحية البحيرة .

وذكر المؤرخ سترابون (النصف الثاني من القرن الأول ق. م .) أن الحركة التجارية من ناحية النيل كانت أنشط منها من ناحية البحر . وهذا معقول جداً ؛ بدليل أن مدينة باريس اليوم من أكبر موانئ فرنسا ، إن لم تكن أكبرها ، مع أنها تعتمد اعتماداً كلياً على الحركة الملاحية في نهر السين وقنواته ، مع العلم بأن نهر النيل أكبر أنهار العالم .

ويقع الميناء البحري للإسكندرية في مواجهة جزيرة فاروس التي ربما كان وجودها أحد العوامل الحاسمة في اختيار هذا الموقع . وتضمن المشروع الأصلي للمدينة بناء جسر طوله^(٥٥) سبعة ستاديوم (= ١٤١٤ ياردة) يصل بين جزيرة فاروس والشاطئ ، وهذا يجعل للإسكندرية ميناءين بحريين منفصلين ، وهما « الميناء الشرقى » أو الميناء الكبير ، ويحميه جسر من ناحية الشرق ، والميناء الغربى أو « يوفوستوس » أى ميناء العودة الحميدة^(٥٦)

وعندما يكون فيضان النيل عالياً تمتلئ بحيرة مريوط بالمياه ولم تتكون مستنقعات ، كما يحدث في أماكن أخرى . ولذا صار هواء الإسكندرية نقياً بفضل موقعها بين البحر المتوسط وبحيرة مريوط ، وبفضل بعدها عن أراضي المستنقعات . ولطفت الرياح الرئيسية الآتية من الشمال الغربى هواء الإسكندرية ،



شكل ٦ - صورة تخطيطية لمنارة الإسكندرية
(فاروس) كما تخيلها :
M.L. Otero : Andalus 1, plate 4 a (1934).

وكان للمدينة ميزة كبرى أخرى هي خلوها من حمى الملاريا . ويذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن اضمحلال بلاد اليونان يعزى من ناحية إلى كثرة تكرار الملاريا ، على حين كانت الدلتا - أو على أية حال الجزء الغربي منها - خالية لحسن الحظ من هذا الوباء الفتاك (٥٧) .
وتقوم جزيرة فاروس ستاراً شمالي الميناءين . وعليها بنيت منارة كبيرة يستطيع كل قادم إلى الإسكندرية عن طريق البحر أن يراها من بعيد . والواقع أن القادم إلى الإسكندرية لم يكن يرى الجزيرة ، بل المنارة فيقول :
فاروس (٥٨) ومعناه المنارة .

وسوف نسمي الجزيرة بهذا الاسم فيما يلي .
وبنيت فاروس في أقصى الطرف الشرقي من هذه الجزيرة زمن بطلميوس الثاني فيلادلفوس حوالي سنة ٢٧٠ ق . م . . وقام على بنائها المهندس المعماري سوستراتوس الكندي . وأثارت فاروس إعجاب كل مسافر . لاني العصور القديمة فحسب ، بل العصور الوسيطة أيضاً . لأنها ظلت قائمة حتى القرن الرابع عشر . وفي المؤلفات الأدبية في العصور الوسطى - ولاسيما في المؤلفات الأدبية العربية وخاصة يوجد عدد كبير من الإشارات إلى المنارة - ويرجع الوصف المفصل الوحيد الذي لدينا إلى عالم إسباني مسلم هو يوسف بن الشيخ

المالتي (١١٣٢ - ١٢٠٧) الذي أقام بالإسكندرية سنة ١١٦٥ ، وهذا الوصف وارد في كتابه المسمى « ألف باء » ، وهو موسوعة موجزة ومرتبطة حسب الحروف الأبجدية ، كتبها المؤلف لتعليم ابنه عبد الرحيم .^(٥٩) ولما زار المالتي فاروس سنة ١١٦٥ وجد أن المنارة لم تعد صالحة للعمل ، ولكنها على أية حال كانت لاتزال محتفظة بشكلها ؛ لأن المالتي استطاع أن يصعد إلى قممها وأن يقيس كثيراً من أبعادها ، وأن يرى في وسط السطح العلوي منها مسجداً صغيراً له أربعة أبواب وتعلوه قبة . ولاحظ المالتي أيضاً وجود نقش يوناني (على الواجهة الجنوبية تحت سطح الطابق الأول بقليل) . ووصفه وصفاً عاماً . لكنه لم يستطع قراءته .

ونستدل من الوصف العربي أن المنارة أقيمت على قاعدة من الصخر يبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر اثني عشرة ذراعاً (= ٧٢٠ أمتار) . وبنيت المنارة من ثلاثة طوابق - وهي الأسفل والمتوسط والأعلى - وكلما ارتفع الطابق قلت مساحته . وكان الطابق الأسفل مربع الشكل ، والأوسط مثنى الأضلاع ، والأعلى مستديراً . وبلغ محيط كل قاعدة الطوابق الثلاثة على التوالي : ٤٥ × ٤٥ = ١٨٠ خطوة (= ١٢٦ متراً) ، ٨ × ١٠ = ٨٠ خطوة (= ٥٦ متراً) ، و ٤٠ خطوة (= ٢٨ متراً) .^(٦٠) وبلغ ارتفاع الطابق الأسفل ٧١ متراً ، وبه ٥٠ منفذاً في حوائطه ، وطريق حلزوني^(٦١) من الداخل يصل إلى سطح الطابق الأسفل ، وكان هذا الطريق الحلزوني من الاتساع بحيث يسمح لفارسين بأن يمارا راكبين في اتجاهين مختلفين دون صعوبة . وللوصول إلى السطحين الأوسط والأعلى يستخدم الصاعد سلمين حجريين ، الأول ٣٢ درجة والثاني ١٨ درجة . ويحتمل أن مصدر النور المنبعث من قمة المنارة كان نيراناً تظل موقدة طوال الليل على السطح العلوي .

ويبلغ الارتفاع الكلي للمنارة ١٢٠ متراً على الأقل ، وربما وصل إلى ١٤٠,٣ متراً ، ولذا كانت المنارة برجاً شاهقاً ، ولا بد أنه كان من السهل رؤيتها على مسافة بعيدة سواء من البر أو البحر . وكان منظر المنارة يروع اليونانيين والأجانب القادمين بحراً إلى العاصمة البطلمية وكانت المنارة إحدى

عجائب العالم السابع (انظر ما يلي) ، غير أن هذه المنارة دمرت بفعل زلزال في القرن الثالث عشر الميلادي .

كانت فاروس أحسن إعلان عن الحركة التجارية في الإسكندرية ، وأفضل دليل على رخائها . وكان هذا الرخاء المادى متناقضاً تمام التناقض مع شدة فقر الفلاحين ، وهو فقر شديد استمر إلى عهد قريب . وتناقض هذا الرخاء المادى كذلك مع الاضمحلال التجارى لبلاد اليونان فضلاً عن الفقر الذى استشرى في معظم أقاليمها؛ إذ هبطت أثينا إلى مستوى مدينة إقليمية عضها الفقر بأنياه ، غير أن مكانتها الروحية ظلت عظيمة كما كانت دائماً ، ولم تزل مدارسها هى المدارس الأولى في العالم القديم ، كما لم تزل هى الكعبة التى يحج إليها كل محب للمعرفة .

وكانت الإسكندرية تتمتع برخاء وفير ، أو بعبارة أخرى ، سيطر ملوكها وكبار رجال المال والأعمال فيها على التجارة العالمية . وكان نهب اليونان لآسيا ومصر هو السبب في إطلاق الثروات الطائلة التى اكتنزها الملوك الشرقيون سابقاً ، وبذلك ازداد تداول الذهب والفضة ازدياداً كبيراً . وفي أسواق الإسكندرية تجمعت المنتجات الوفيرة من مصر مثل الحبوب ، وأوراق البردى ، والمصنوعات الزجاجية ، والمنسوجات والأقمشة المطرزة المتعددة الأنواع ، والسجاجيد ، وأنواع الجواهر الثمينة ، كما تجمعت منتجات الجزيرة العربية مثل العطور والبخور^(٦٢) ، فضلاً عن منتجات بلاد حوض البحر المتوسط . وكشفت الحفريات الأثرية التى أجريت في الحجر والاتحاد السوفيتي – إذا نحن أغفلنا البلاد القرية – عن وجود أدوات صنعت في الإسكندرية . وفي الإسكندرية كذلك اكتشفت أدوات خزفية صنعت في رودس ، وثاسوس ، وكنيديوس ، وكريت وغيرها من البلاد الأخرى . وجددير بالذكر أن الأغلبية العظمى من الأواني الخزفية كانت من رودس ، لأن هذه الجزيرة كانت من أعظم المراكز التجارية في شرق البحر المتوسط . وكان مقر المصرف المالى الرئيسى المصرى في مدينة الإسكندرية ،

كما كانت كل حرفة أو تجارة تدفع عنها ضريبة يتصرف فيها الملتزمون المليون
 نظير دفع مبالغ معينة ، وكان الكثير من هذه الحرف والتاجر^(٦٣) احتكاراً .
 ولم تكن منارة الإسكندرية رمزاً للديموقراطية ، كما كانت أبراج الأجراس
 الشاخنة في مدن العصور الوسطى ، بل كانت بمثابة الإعلان الضخم عن غنى
 ملوك العصر الملنسى .

عجائب الدنيا السبع

لنقف هنا لحظة لتأمل التعبير الذى بقيت آثاره في كل آداب الغرب
 وهو قولنا : « عجائب الدنيا السبع » . من المحتمل أن يكون ذلك القول تعبيراً
 عن فكرة خيالية^(٦٤) غير أنه ظهر للمرة الأولى في زمن متأخر نسبياً ، وكان
 أول موضوع أدبي يظهر في هذا الشأن مقالا باليونانية عنوانه « عن العجائب
 السبع » يعزى إلى فيلون البيزنطى . ولو تحقق لنا أن المؤلف هو فيلون الحيد
 اليونانى في الآلات الذى عاش في القرن الثالث أو الثانى ق.م. ، لاعتبرنا المقال
 قديماً ، غير أنه من المؤكد أن فيلون الذى كتب عن « العجائب السبع » لم يكن
 في عنفوان شبابه قبل القرن الرابع - وربما الخامس - للميلاد^(٦٥) .

وعلى أية حال ، فالمقال قصر وركيك ، ولا يحتوى على شيء سوى
 معلومات طفيفة ، لأنه كتب بصورة خطابية ولم يعتمد على الوصف ، ثم إن
 هذا المقال وصلنا ناقصاً ، فالجزء الأخير منه مفقود .^(٦٦) والمؤلف يمتدح العجائب
 السبع بالترتيب التالى : ١- الحدائق المعلقة في بابل ٢- الأهرام ٣- تمثال زيوس
 الذى نحته فيدياس ٤- تمثال رودس ٥- أسوار بابل ٦- معبد إفسوس ٧- ضريح
 هاليكارناسوس (والجزء المفقود يتضمن خاتمة الكلام عن معبد إفسوس ،
 وضريح هاليكارناسوس) . ويدل هذا الترتيب على شيء من الغباوة ؛ فالهرم الكبير
 بناه خوفو (القرن ٢٩ ق . م .) ، والعجيبتان الأولى والخامسة ، وهما الحدائق
 المعلقة وأسوار بابل ، بناهما نبختنصر (٦٠٥-٥٦١) ، والعجيبية الثالثة وهى تمثال

زيوس ، نحته فيدياس (٤٩٠ - ٤٣٢) حوالى منتصف القرن الخامس ، ويحتمل أن يرجع تاريخ العجبتين السادسة والسابعة إلى منتصف القرن الرابع ق . م . وأقول « يحتمل » لأن المؤلف لم يوضح في وصفه للضريح ما إذا كان يشير إلى الضريح القديم الذى بنى فى المدة من سنة ٥٧٥ إلى سنة ٤٢٥ وأحرقه لإبروستراتوس سنة ٣٥٦ ق . م . ، أم أنه يشير إلى الضريح الجديد الذى بدأ بناؤه حوالى سنة ٣٥٠ ق . م . ثم أحرق على يد القوط سنة ٢٦٢ م . ثم إن الملك موسولوس تولى سنة ٣٥٣ ق . م . وشيدت زوجته أرتيميزيا وهى أخته ، وخليفته ، ضريحه التذكارى عقب وفاته . والعجبة الأخيرة التى تكلم فيلون عنها هى التمثال الضخم لإله الشمس ، ويبلغ طوله ٧٠ ذراعاً (= ٤٢ متراً) ، وهو من صنع خايريس اليندوسى (عاش حوالى سنة ٢٩٠ ق.م.)^(٦٧) ، وهو التلميذ المفضل عند ليسيبوس . واستغرق تشييد هذا التمثال اثني عشر عاماً وتكلف ثلاثمائة تالنت ، وكان يسمى « كولوسوس » ، وأقيم عند مدخل ميناء رودس . ولكن الرواية التى تقول إن رجل التمثال منفرجتان ومثبتتان على جانبي بوغاز الميناء هى من الأساطير . وحوالى سنة ٢٢٤ ق . م . تهدم هذا التمثال بفعل زلزال ، وظلت أجزاؤه مبعثرة على سطح الأرض مدة تسعة قرون تقريباً ، أى حتى باعها أحد قادة الخليفة الأموى معاوية (٦٦١ - ٦٨٠) إلى يهودى من حمص . واستخدم هذا اليهودى فى نقل هذه الأجزاء ٩٨٠ جملاً سنة ٦٧٢ (ولهذا القصة روايات مختلفة وخاصة فى عدد الجمال الذى يتفاوت بين ٩٠٠ و ١٣٠٠)^(٦٨) .

وإذا نحن رجعنا إلى العجائب السبع وجدنا أن هذه التسمية التى انفردت بقداسة الرقم العدى سبعة وصلت إلينا عبر الأجيال المتتالية ولن تموت أبداً . وسوف توجد بيننا وأبداً سبع عجائب ، ماعدا قائمة هذه العجائب تختلف من حين إلى حين . ومن الغريب أن فيلون لم يذكر منارة فاروس ، ضمن قائمة العجائب السبع ، وهو لاشك مخطئ فى ذلك ، لأن المنارة كانت أعجب بناء من نوعه على الإطلاق حتى العصور الحديثة ، وانطوى تشييدها على حل

لكثير من المشكلات المعقدة في البناء،^(٦٩) ومع هذا فإن القائمة المتداولة في معظم المؤلفات العلمية هي نفس قائمة فيلون، فيما عدا أن حدائق بابل وأسوارها تعد عجيبة واحدة ، ثم أضيفت منارة فاروس إلى القائمة .^(٧٠) وهناك قوائم قديمة أخرى تتضمن تمثال الإله أثينا ، وهو التمثال الذي صنعه فيدياس ، كما تتضمن معبد أسكليبيوس في إبيداوروس، ومعبد جوبيتر أو الكابيتول في روما ، ومعبد الإمبراطور هادريان (١١٧ - ١٣٨) في سيزيكوس وحتى معبد سليمان بيت المقدس .

وصنع القدر المتقلب ما شاء أن يصنع بكل من تلك العجائب . غير أن العجيبة الوحيدة التي لا تزال قائمة حتى العصر الحاضر هي أعرقها في القدم ، ونعني بها الهرم الأكبر الذي سبق العجيبة التي تليه في القدم بألفين من السنين ، على حين لم يعمر آخر هذه العجائب ، وهي تمثال كلوسوس بجزيرة رودس سوى ستين عاماً .

ونختتم هنا الإشارة إلى أن دلائل النهضة السكندرية في العصر البطلمي لم تقتصر على منارة فاروس ، بل تتعدى إلى المنشآت البارزتين اللتين أسهمتتا في هذه النهضة، وهما الموسيون والمكتبة. وسواء أكانت المنشأتان متصلتين أم منفصلتين إحداهما عن الأخرى ، فذلك موضع بحث ، مع العلم بأنهما كانتا مؤسستين ملكيتين أقيمتا في الحى الملكى من المدينة ، واعتمدتا اعتماداً كلياً على مشيئة الملك . أما استقلالهما أو ارتباط كل منها بالأخرى فهو مسألة إدارية لا يعنيننا الكلام عنها هنا .

وسوف تناول بقية القسم الأول من هذا الكتاب موضوع الموسيون وأوجه النشاط العلمى التي نشأت فيه ، أو استمدت بعض العون أو الإلهام منه ، كما تتناول موضوع المكتبة والدراسات الإنسانية السكندرية التي تركزت فيها ، أو قامت المكتبة بدور الإلهام لأربابها .

تعليقات :

(١) انظر Pierre Jouguet, *L'impérialisme macédonien et l'hellenisation de l'Orient*, (Paris, 1926; English translation, London, 1928).

(٢) المقصود بذلك الإخاء بمعنى الكلمة ، مع قبول وجود الرق . وعلى أية حال ، لا ينبغي أن نقسو في الحكم على الإسكندر ، وذلك لأن هذا النظام الشائن كان موجوداً في الولايات المتحدة في القرن الماضي ، وكان لامناص من قيام الحرب الأهلية (١٨٦١ - ١٨٦٥) لإلغائه .

(٣) وقعت روكسانا أسيرة في يد الإسكندر عندما استولى على قلعة في بلاد الصغد شرق نهر جيحون (أو كوس) وبعد وفاته بوقت قصير ولدت روكسانا الطفل إسكندر الرابع ابجوس الذي نودي به شريكاً في الحكم مدة قصيرة . وكانت روكسانا وابنها في حماية أوليمبيادس والدة الإسكندر ، غير أن كاسندروس قتلها في سنة ٣١١ ولم يكن الإسكندر الصغير يتجاوز الثانية عشرة من العمر .

(٤) استخدم المؤلف هنا لفظ ماجوس للدلالة على الحكماء ، وهو من الألفاظ التي تثير الاهتمام في اللغة الإنجليزية ؛ فأصله إيراني ولكنه استخدم في اللغة اليونانية ، أولاً بمعنى « قس من أتباع الزرادشتية » ، ثم بمعنى « حكيم » وخاصة « مفسر الأحلام » وقد شاع هذا اللفظ في العالم المسيحي بعد استعمالها في إنجيل متى : الإصحاح الثاني : الفقرة الأولى ، حيث سمي الملوك باسم المجوس يعني الحكماء ، ومن هذا اللفظ اشتقت كلمة ساحر وكلمة حكيم في اللغة الإنجليزية .

(٥) انظر A.J. Festugiére, *Grecs et sages orientaux*, "Revue de l'histoire des religions" 130, 29 — 41 (1945) P. 32.

كان نخاو ملكاً على مصر من سنة ٦٠٩ إلى ٥٩٣ ، وكان داراً ملكاً على بلاد الفرس من ٥٢١ إلى ٤٨٥ ق . م . ولرحلتين البحريتين حول أفريقيا ، انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (الطبعة الإنجليزية . الصفحات ١٨٣ و ١٩٩ وكذلك ص ٢٩٩ هامش ٣) حيث يجب أن تكون الإشارة إلى الملك نخاو وبدلاً من ساتاسبيز .

(٦) انظر: Jean Przyluski, "La théorie des éléments et les origines de la science", *Scientia* 54, 1—9 (1933) *Isis*, 21 434 (1934).

وانظر أيضاً مقالة سابقة له بعنوان :

"L'influence iranienne en Grèce et dans l'Inde", *Revue de l'Université de Bruxelles* 37, 283 — 294 (1931—32) *Isis*, 22, 372 (1934—35).

(٧) لشرح موضوع التبادل في الأفكار الدينية بين إيران وبلاد اليونان ، انظر :

Joseph Bidez and Franz Cumont, Les mages hellénisés.

Zoroastre, Ostanès et Hystaspe d'après la tradition grecque (2 vols.; Paris, 1938)

Isis, 31, 458 — 462 (1939 — 40).

والمعروف أن زوروا ستريز (القرن السابق ق. م. ؟) هو زاراثوسترا الذي ورد في الزند أفشتا وكان أوستائيس وهيستاسبس معلمين لهذه الديانة فيما بعد .

(٨) المجلد الأول الطبعة الإنجليزية ، ص ٢٦١ .

(٩) انظر التفاصيل في المجلد الأول الطبعة الإنجليزية ، ص ٣١١ و ٣٢٧ .

(١٠) المجلد الأول الطبعة الإنجليزية ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ ، ولعنى التقارب ، انظر

صفحات ١٧ - ١٨

Jean Filliozat, "L'Inde et échanges scientifiques dans l'humanité", Cahiers d'histoire mondiale 1, 353 — 367 (Paris, 1953)

(١١) انظر البحث المستفيض الذي يتضمنه كتاب :

W.W. Tarn : The Greeks in Bactria and India (ed. 2, 591 pp. 2. pls., 3 maps; Cambridge : University Press; 1951 ed. 1, 1938).

(١٢) انظر ملخص هذه الأسطورة الذي كتبه :

A.J. Festugière, "Trois rencontres entre la Grèce et l'Inde. 1. Le colloque d'Alexandre et des dix gymnos ophistes, Revue de l'histoire des religions 125, 33—40 (1942—43)

وكلمة جيمنوسفبستس تعنى الفيلسوف العارى التى أطلقها اليونانيون على حكماء الهندود .

(١٣) بنيت باتاليبوترا عند ملتقى نهر الكنج بنهر سون ، هى مدينة باتنا الحديثة ، عاصمة

إقليم بيهار .

(١٤) كانت رفح سيناء فى طرف الجزء الجنوبي الغربى من فلسطين ، قرب غزة على مشارف

الصحراء .

Tarn, The Greeks in Bactria and India (ed. 2), chap. 6, "Menander and his Kingdom", pp. 225 — 269.

اعتمدت فى وضع التواريخ على هذا الكتاب ، وفى أحد الملاحق بالكتاب (ص ٤١٤ - ٤٣٦) يقارن المؤلف « أسئلة ميلندا بأسئلة بطلميوس الثانى » خطاب ارستياس المكذوب . وستتناول بالكلام موضوع ميلندا بأنها وارستياس فيما يلى .

(١٦) ليس هذا التاريخ مؤكداً ، فالبعض يحدده متأخراً حتى سنة ٥٠ م . ولكنني اتبعت هنا رستوتنزف في مجلة ايزيس جزء ٣٤ : ص ١٧٣ (١٩٤٢ - ١٩٤٣) . وأطلق ميغاستنيس (النصف الأول من القرن الثالث ق . م) على الرياح الموسمية اسم « الرياح الايتيرزية » في وصفه للهند . وفيما بعد سميت هذه الرياح باسم « هيبالوس » نسبة إلى مكتشفها . أما الاسم مونسون فيرجع إلى تاريخ متأخروذلك لأن الاسم مشتق من العربية « موسم » . انظر :

Henry Yule and A.C. Burnell, Hobson — Jobson : A glossary of colloquial Anglo — Indian words and phrases, and of Kindred Terms, etymological, historical, geographical and discursive, ed. William Crook (London : Murray, 1903), p. 577.

(١٧) انظر : W.W. Tarn and G.Y. Criffith, Hellenistic civilisation (London : Arnold, ed. 3, 1952, p. 248.

غزا افونسو جراندى البوركك (١٤٥٣-١٥١٥) جزءاً من بلاد الهند في سنة ١٥٠٤ ، وأعلن سلطان البرتغال عليها .

(١٨) يقع النص البالي الطويل في ٤٢٠ صفحة في طبعة ترنكنر، وينتهي الجزء القديم عند صفحة ٨٩ ، وهولذلك لا يعدو أكثر من خمس النص الكامل .

(١٩) انظر، No. 1358 in the Catalogue of Buni Najio (Oxford, 1883; reprint, Tokyo, 1930).

ومن أجل التعريف بموضوع تربيتنا كما ومن أجل الصينية انظر كتابي الذي عنوانه مقدمة تاريخ العلم ، الجزء الثالث ص ٤٦٦ - ٤٦٨ .

(٢٠) من الأمثلة على ذلك الكلمة الأستدا ، في الكتاب الثالث ، وهي في الغالب تحريف لكلمة الإسكندرية .

(٢١) انظر ووصف هذه الألواح المسامرية في Otto Neugebauer, The exact sciences in Antiquity (Acta Historica scientiarum naturalium et medicinalium, edidit Bibliotheca Universitatis Hauniensis, vol. IX; Copenhagen : Munksgaard, 1951; Princeton: Princeton University Press, 1952). Isis 43, 69 — 73 (1952) and Chapter XIX, below.

ومن هذا الكتاب طبعة ثانية في مطبوعات جامعة براون سنة ١٩٥٧ .

(٢٢) هذا الرأي معقول إذا افترضنا أن هيرون لا ينتمى إلى عصر ما قبل المسيحية ، كما اعتقدت سابقاً ، وأنه لم يعيش في النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد ، ولكنه عاش في النصف الثاني من القرن الأول . ويحتمل أنه ازدهر بعد سنة ٦٢ وقبل سنة ١٥٠

انظر : Isis 32, 263 (1947 — 49) 39, 243 (1948).

(٢٣) لم تكن هذه الهجرة قليلة لا في الأعداد المطلقة فحسب ولكن بالنسبة إلى السكان الآسيويين جميعاً .

Tarn, Hellenistic Civilisation, p. 163. (٢٤) انظر :

(٢٥) يلاحظ أن بطلميوس الفلكي لم يكن من هذه الأسرة ، وهو الذي عاش في القرن الثاني الميلادي . ويطلميوس الفلكي هذا رجل عظيم حتى إنه يستحق اسماً عالمياً ، على حين أن اسم أسرة ملوك لاجوس (البطلمية) لا يعنى سوى مصر والشرق الأدنى وحدهما .

(٢٦) كانت أرسنوى أم بطلميوس محظية فيليب المقدوني .

(٢٧) يعرف كل إنسان كليوباترا ولا يعرف غيرها ، ويرفض عالم إنجليزي هو شيرود

تايلور F. Sherwood Taylor, in The Alchemists (New York : Schuman, 1949), P.26 أن ينسب نصوصاً يونانية عن الكيمياء القديمة إلى كليوباترا لأنها ملكة مصرية غير أن هذا الاسم كان شائعاً في العالم اليوناني ، ومع التجاوز عن المشابهة كانت الكثيرات من النساء في مصر البطلمية يسمين كليوباترا ، كما كان اسم فيكتوريا في إنجلترا شائعاً في عصر الملكة فيكتوريا . ويوجد ثلاث وثلاثون من النساء باسم كليوباترا ، وهن ذوات شهرة كافية في تقدير دائرة المعارف الألمانية Pauly - Wissowa, Vol. 21 (1921), 732 - 789 . وكليوباترا موضوع دراستنا وأشهرهن جميعاً ، هي كليوباترا السابعة ، ابنة بطلميوس الثاني عشر أوليتيس التي ولدت سنة ٦٩ وانتحرت سنة ٣٠ . وعندما يكتب الباحث لفظ « كليوباترا » بلا تعيين، فتكون هي المقصودة . اقرأ ما كتبه بلوتارخ عنها في تاريخ حياة أنطونيوس .

Tarn and Griffith, Hellenistic Civilisation, pp. 46, 56. (٢٨) انظر :

وكان هانيبال بن هاملكار بار كا أعظم قائد قرطاجي (٢٤٧ - ١٨٣) .

(٢٩) ماتت كليوباترا فقلاً عن المصادر الشائعة من لدغة ثعبان ثبتته على ثديها . وكان هذا موتاً رمزياً ، فالحية الملكية يورايوس مع قرص الشمس ، كانت رمزاً للإله رع (إله الشمس) . وهذا الرمز ظهر أيضاً في تيجان الملوك المصريين فوق الجبهة . ويلاحظ أن آخر ملك من ملوك مصر القديمة مات بلدغة الحية المقدسة .

J.H Breasted, in his History of Egypt: New York : Scribner, 1942, (٣٠) انظر :

p. 579.,

حيث يقارن هذه الجاليات اليونانية بالجاليات الأوروبية في الصين فيقول مانصه : « لو كانت الأمور بيد المصري لنتى الأجانب جميعاً من سواحله، ولكنه إزاء تلك الظروف ، وهي تشبه ظروف الصين في العصر الحديث ، تاجر معهم ولم يعارض وجودهم في دياره ، نظراً للمغرم الذي يعود عليه منهم .

تاريخ العلم - رابع

(٣١) ربما يدهش بعض القراء أن أدرجنا هنا أعمال المصارف المالية (البنوك) ؛ لأن هذا البعض لا يدرك أن نظام المصارف المالية يرجع إلى العصور القديمة ، فكان في الإمبراطوريات الشرقية وخاصة في الإمبراطورية الفارسية رجال مصارف مالية ، ولندكر هنا أن مصر كانت ولاية فارسية من ٥٢٥ - ٣٣٢ ق. م. وأن فاتحيها من اليونانيين جاؤوا إليها لإصلاح النظم الفارسية أو إلغائها ، ومن ثم ورث البطالمة النظم المالية من الجائنين اليوناني والفارسي . انظر رسالة الدكتوراه التي كتبها غليوم كارداشيا في باريس وموضوعها :

Les archives de Murashū. Une famille d'hommes d'affaires à l'époque Perse, 554 — 403 (Paris : Imprimerie nationale, 1951).

وهي رسالة ألفت ضوءاً هاماً على أعمال المصارف المالية الفارسية في العصور القديمة . وكان المصرف الموراشي في مدينة نيسبور من أقدم البيوت المالية في العالم . انظر بضع مذكرات عن البنوك في Tarn and Griffith, Hellenistic Civilisation, pp. 115-116, 250.

(٣٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب (الطبعة الإنجليزية ، ص ٥١) عن استخدام الإبل في مصر .

(٣٣) دراسة الزراعة والتجارة والصناعة في مصر البطلمية موضوع ضخم عاجله المرحوم ميخائيل أفانوفتش رستوفتوف (١٨٧٠ - ١٩٥٢) معالجة وافية في كتابه :

The Social and Economic History of the Hellenistic World (3 vols. 1804, pp. 112 pls.; Oxford : Clarendon Press, 1941) Isis 34, 173-174 (1942-43).

وعالج روبرت بير بوذت بليك موضوع التمدين وملحق في هذا الكتاب .

(٣٤) جمعت الإدارة في مصر قيام الثورات من الأمور العسيرة العديدة الجدوى ، إذ كانت الحكومة تسيطر على كل شيء تمام السيطرة ، غير أن الحكومة نفسها أخذت في الضعف منذ عهد بطليموس الرابع فيلوپاتر (٢٢٢ - ٢٠٥) فصاعداً ومن سنة ٢١٧ إلى سنة ٨٥ ق. م . ازدادت الثورات سواء في العدد أو القوة أو العنف .

(٣٥) اشتملت الطبقة العليا على بعض المصريين وخاصة كبار الكهنة .

(٣٦) تقع هذه الواحة في أقصى غرب الواحات المصرية ، على مسافة أربعمئة ميل تقريباً جنوب غربي الإسكندرية . والسفر إليها بالسيارة الحديثة رحلة شاقة ، ولايسع الباحث إلا أن يعجب بالإسكندر لقطعه المسافة إليها بالطريقة القديمة أشد مشقة . وكان معبد آمون معروفاً لدى اليونانيين في القرن السابع ق. م . ، وكان لنبوة الكاهن الأكبر من المكانة والسلطان ما يكاد يضاهي كاهن معبد دودونا ودلفي . وأدرك الإسكندر الأهمية السياسية لاستشارة الكاهن الأكبر . انظر عن سيوه C. Dalrymple Belgrave, Siwa, the oasis of Jupiter Ammon (London, 1923).

ولم يتبق من هذا المعبد سوى بقايا أثرية قليلة ، ولطهه البقايا صوراً فوتوغرافية جيدة في :

Robin Maugham, *Journey to Siwa* (London : Chapman and Hall, 1950), pls. 13, 15, 21, 25.

ويقال إن أول طريقة للحصول على النشادر (chloride or hydrochloride of ammonium) كانت بتقطير روث الجمال بالقرب من ذلك المعبد . ونحن لانبعد عن الصواب إذا تكلمنا عن الأمونيات المتحجرة ، فاسمها بلاشك مشتق من معبد آمون ؛ لأنها تشبه قرن الكبش ؛ إذ كان الكبش هو الحيوان المقدس لإله الشمس آمون رع ، وكان زيوس آمون صورته اليونانية .

(٣٧) هنا يأتي السؤال : « هل اعترفت نبوة الكاهن الأكبر بمعبد آمون بشخصية الإسكندر ؟ ذلك أمر موضع شك ، أو هو أمر يتوقف بالأحرى على تفسير أفراد حاشية الإسكندر . وربما رجب الكاهن الأكبر بالإسكندر بالكلمات : « يابني » أو « يابن زيوس » ومن السهل الخلط بين هاتين الحيتين وربما كانت التحية الثانية تقليدية ، أو يكون المقصود بها مدلولها الحرفي .

(٣٨) اتحد العجل الميت أبيس مع الإله أوزيريس ، وصار معبوداً باعتباره أحد آلهة العالم الأسفل ، وبذلك يطابق أوزارابيس أو يقابل هاديس أو بلوتون عند اليونان .

(٣٩) الاسم (سارابيس) مشتق من الكلمتين أوزيريس وأبيس أو أوزارابيس . ويلاحظ أن سارابيس وسارابيون اسمان يونانيان . أما سيرابيس وسيرايبوم فهما صيغتان لاتينيتان .

(٤٠) كان كل من مانيتون وتيموثيوس مستشاراً لبطلميوس سوتير . ويسمى بلوتارخوس المستشار تيموثيوس باسم المفسر ، لأنه كان يقوم بتفسير الطقوس الإليوسية الغامضة . وتخبرنا الأساطير القديمة أن البطل إيمبوليوس هو مؤسس تلك الطقوس الغامضة ، وكان أول كاهن للإلهة ديمتير . والمفروض أن الكهنة الذين خلفوا إيمبوليوس من سلته ويطلق عليهم اسم إيمولييد ، وكان تيموثيوس أحدهم .

Pauly-Wissowa, series 2, Vol. 12 (1937), 1341.

انظر :

(٤١) أطلقت عليه هذه التسمية على هذا الأثر القديم بسبب القصة التي شاعت في العصور الوسطى أن هذا العمود نصب على مقبرة بوبى العظيم ، وهو القائد الروماني (١٠٦ - ٤٨ ق . م) الذي قتل حيث كان ينزل إلى الشاطئ المصري ، ويسمى العرب « عمود بوبى » باسم العمود من غير أية نسبة لشخص ما .

(٤٢) كان ثيوفيلوس أسقفاً للإسكندرية من ٣٨٥ إلى ٤١٢ ، وقيل إنه حصل من الإمبراطور ثيودوسيوس على تفويض يحول له تدمير معابد الإسكندرية الوثنية ، لامعبد السرايين فقط ، بل معبد ميثرا أيضاً فضلاً عن معابد أخرى . وليس من المحقق أن الإمبراطور منح الأسقف ثيوفيلوس هذه السلطة ، ولكن ثيوفيلوس كان طاغية متعصبا إلى حد الانحراف عن الصواب .

(٤٣) نهر جيلوم هو نهر هيداسبس القديم ، أى إنه أحد أنهار البنجاب الخمسة ، ويوسفالوس كان اسم جواد الإسكندر . انظر المجلد الأول من هذا الكتاب .

(٤٤) جاكسارتيس (أوسورداريا) اسم النهر الشرق من النهرين اللذين يصبان في بحر آرال والنهر الآخر اسمه أوكسوس ، أما بلاد الصغد فهى المنطقة الواقعة ما بين النهرين .

(٤٥) تعنى كلمة سيما في اللغة العربية لفظ « علامة » أو « نذير » وأصبح معناها فيما بعد « شاهد قبر » . واللفظ الذى يستعمل كثيراً اليوم مشتق من نفس الأصل . وكانت تعنى أحياناً « الجسم » . وربما عثر على مكان مقبرة الإسكندرية بالقرب من جامع النبى دانيال وربما أدت الحفائر في تلك المنطقة إلى ازدياد معلوماتنا . وتقوم في العصر الحاضر بمئة بولندية برئاسة الأستاذ ميخالوفسكى بالحفر في هذه المنطقة .

(٤٦) يضاف إلى هؤلاء وأولئك فئة كبار الكهنة المصريين الذين سيطروا على نفوس الناس ، وتعاونوا مع الحكام ذوى الشأن .

(٤٧) لم يستخدم اليونان لفظ كوزموبوليس في هذا المعنى ، ولكن الفيلسوف الكلبى ديوجنيس سينيوى ، كان أول من استعمل هذا اللفظ . إذ عندما سئل من أى بلد جاء ، أجاب : « إننى مواطن عالمى » وربما تركت هذه الرواية أثرها في الإسكندر لو كان سمعها ، غير أنه على فرض أن ديوجنيس أول من ابتدع هذه الفكرة ، لم يكن في استطاعته الإعلان عنها وفرضها كما فعل الإسكندر . انظر : Diogenes Laërtios; VI; 63. Volume 1, p. 489.

(٤٨) انظر : Volume 1, pp. 295, 570.

(٤٩) كان بناء معبد إفسوس القديم في القرن السادس قبل الميلاد ، ثم أحرقه بالنيران هيروستراتوس الإفسوسى الذى أراد « أن يخلد نفسه » ، ونجح في مقصده . وطبقاً للأسطورة ، اشتملت هذه النيران في نفس الليلة التى ولد فيها الإسكندر سنة ٣٥٦ .

(٥٠) لم يبدأ تحقيق هذه الفكرة الشامخة حتى وقتذاك . غير أنه يحتمل أن يكون دينوكراتيس بسبب هذه الفكرة رائداً قبل المثال الدانيمركى برتل ثورفالدمن (١٧٦٨ - ١٨٤٤) الذى وضع تصميم التمثال العظيم لأسد لوسرن تخليداً لذكرى الحراس السويسريين الذين قتلوا سنة ١٧٩٢ ، كما يعتبر دينوكراتيس رائداً أيضاً قبل المثال الأمريكى جوتسون بورجلم (١٨٧١ - ١٩٤١) ، الذى نحت صوراً لأوجه الرؤساء الأمريكين في صخور جبل راشمور في تلال بلات هيلز بولاية داكوتا بالولايات المتحدة .

Pliny, Natural History, XXXIV, 42 or 147.

(٥١) انظر :

(٥٢) لمعرفة التفاصيل عن مدينة الإسكندرية في العصور القديمة انظر :

E. Breccia, *Alexandrea ad Aegyptum* (Bergamo, 1914), the excellent Baedeker (ed. in English; Leipzig, 1929), and Edward Alexander Parsons, *The Alexandrian Library* Amsterdam : Elsevier 1952) *Isis* 43, 286 (1952), including many maps.

(٥٣) تقع راقودة تجاه جزيرة فاروس ، وربما يكون كليومينيس النوقراطي الذي كان عامل الإسكندر في مصر هو الذي اختار هذه البقعة . وكليومينيس هذا كان مالياً ماهراً ، ولكن ابتزازه للأموال زاد عن الحد حتى إنه أعدم بأمر من بطلميوس سوتير .

(٥٤) يصل الفرع الكانوبي إلى البحر المتوسط عند أبي قير شرق الإسكندرية ، وهناك فروع أخرى عند رشيد وإلى الشرق منها . وكانت نوقراطيس تقع على الفرع الكانوبي ، ولكنها تبعد مسافة ما عن شاطئ البحر .

(٥٥) بلغ طول الجسر ٦٠٠ ذراع (= ٣٦٠ متراً) ، وعرضه ٢٠ ذراعاً (= ١٢ متراً) ، ويعلو ثلاثة أذرع (= ١,٨٠ من الأمتار) عن سطح البحر ، ويفتخه ماء البحر قليلاً عند المد حتى يصل إلى مفصل القدم . ولما كانت الجزيرة تعلو عن الشاطئ* ، وصلت بينهما قنطرة منحدره تتكون من ست عشرة فتحة يتناقض ارتفاعها كلما اقتربت من الجسر .

(٥٦) ترك المؤرخ سترابون وصفا مفصلاً للميناءين في جغرافيته: *Geography*, XVII, I, 6-8 .
ولاحظ سترابون خلوا الإسكندرية من الأراض .

(٥٧) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ، عن الملايريا في بلاد اليونان القديمة .

(٥٨) أضفى اليونانيون على كلمة « فاروس » معنى المنارة ، واستخدموها للدلالة على أية منارة . ثم انتقلت الكلمة إلى كثير من اللغات الرومانسية ، أي الفرنسية ، والإيطالية والإسبانية وهكذا ، حيث اشتق اللفظ الدال على المنارة من كلمة فاروس . وتستعمل الكلمة فاروس أيضاً في الإنجليزية للدلالة على نور يشبه النور المنبعث من المنارة مثل فانوس المركب ، ونحن نشيد بفضل منارة الإسكندرية كلما استخدمنا لفظاً من هذه الألفاظ المشتقة من كلمة فاروس .

(٥٩) طبع هذا الكتاب بالقاهرة سنة ١٨٧٠ ، ويقع وصف المائتي في الجزء الثاني ص ٥٣٧ - ٥٣٨ ، واكتشف ميغيل آسين بلاسيوس أهمية هذا الكتاب وترجمه وتناوله بالبحث في مجلة *Andalus* 1, 241-300 (1930) وأتم شرح آسين لهذا الكتاب من الناحية التكنولوجية المهندس المعماري مودستولوبيرأوتير و . انظر أيضاً مجلة *Andalus* 3, 185-193 (1935) وأعظم البحوث قيمة في موضوع منارة الإسكندرية كتاب ألفه هيرمان تيرش (١٨٧٤ - ١٩٣٩) وعنوانه *Pharos* (266 pp. 10 pls., 455 ills.; Leipzig, 1909) ولا يزال هذا الكتاب عظيم القيمة ،

ولكن النتائج التي توصل إليها تيرش ينبغي أن تتمدد في ضوء اكتشاف آسين .. وشرح هذا الاكتشاف في إنجلترا المرحوم دوق ألبا وبيرويك مرة في مجلة Proceedings of the British Academy المجلد ١٩ ، ص ٣ - ١٨ لندن ١٩٢٣ ، ومرة أخرى في : Illustrated London News, 27. January 1934.

(٦٠) نستطيع أن نفترض أن الذراع تساوى حوالى ٦٠ سم أو $1/2$ ٢٣ بوصة ، والخطوة تساوى نحو ٧٠ سم أو $1/2$ ٢٧ بوصة .

(٦١) استخدمت هذه الطريقة المعمارية في برج كندرائية أشبيلية وبرج كوبنهاجن المستدير .

(٦٢) كان البخور مستعملا بكميات كبيرة في كثير من معابد الآلهة ، انظر :

Tarn, *Hellenistic Civilisation*, p. 260.

(٦٣) يوجد كثير من التفاصيل المتعلقة بهذا الموضوع في كتاب :

Bernard Pyne Grenfell, *Revenue laws of Ptolemy Philadelphus* (388 pp., 13 pls.; Oxford, 1896).

ويوجد ملخص من هذا الكتاب عن احتكار الزيت في كتاب :

G.W. Botsford and E.G. Sihler, *Hellenistic Civilisation* (New York, 1915), pp. 607-609.

وكان الزيت أكبر الاحتكارات الملكية وأحسنها ، ولكن كانت هناك احتكارات أخرى كثيرة مثل احتكار المنسوجات وورق البردى .

(٦٤) ذكر سترابون في جغرافيته *Geography*, XVII, 1, 33 أن الأهرام كانت ضمن العجائب السبع ، ومعنى ذلك أن العجائب وضعت في ذلك الترتيب قبل عصره .

(٦٥) أوردت في الجزء الأول من كتابي الذي عنوانه مقدمة في تاريخ العلم أن تاريخ فيلون الخبير في الآلات هو النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد . وفي مقال W. Kroll بشأن فيلون في دائرة المعارف الألمانية . (Pauly-Wissowa, Vol. 39 (1941), 53-55).

وضع فيلون في أواخر القرن الثالث ق . م . ، والمعروف أن فيلون الآخر صاحب مقال العجائب السبع يرجع إلى القرن الرابع أو الخامس بعد الميلاد .

First edition by Leo Allatius (Rome, 1640); second by Io.C. Orelli . (٦٦) (Leipzig, 1816).. The best is the one by Rudolf Hercher at the end of his edition of Ailianos(III - 1) (Paris, 1858), Vol. 2, pp. 101-105.

والطبقات الثلاث باللغتين اليونانية واللاتينية .

(٦٧) كانت مدينة ليندوس إحدى المدن الثلاث القديمة في جزيرة رودس ، ولذا كانت مدينة رودس التي تأسست عام ٤٠٨ ق. م. حديثة نسبياً . وكان هليوس ، إله الشمس راعي هذه الجزيرة ، ولم يكن خarris الفنان الرودي الوحيد ، لأن جزيرة رودس اشتهرت بأنها كانت مركزاً فنياً وتجارياً منذ عصور ما قبل التاريخ ، وتوجد القطع الفنية من التماثيل المصنوعة في رودس في العصر الهلنستي في كثير من البلاد ، ومثال ذلك « اللأو كون » و « البيجا » وهي (عربية يجرها جوادان منطلقان) وهما موجودان في الفاتيكان ، ومن هذه القطع الفنية كذلك تماثيل الكوادريجا للإله هليوس الموجود في ميدان سان مارك بمدينة البندقية ، ثم تماثيل الثور المتوحش الذي عثر عليه الباحثون في قصر أسرة فارنيزي . وهذا التمثال موجود الآن في متحف نابولي ، وهكذا . انظر : Skevos Zervos, *Rhodes, capitale du Dodécanèse* (folio, 378 pp., 687 ills.; Paris, 1920). وهذا الكتاب موضح بالصور توضيحاً رائعاً .

(٦٨) أفضل المصادر في هذا الموضوع هو : *Chronographia of Theophanes Homologetes* (IX — 1), Carolus de Boor's edition (Leipzig 1883), Vol. 1, p. 345.

ويقول ثيوفانيس إن هذه البقايا كانت من للبرونز ، ولكن من العسير أن يصدق الباحث أن مثل هذه الكتل الضخمة من هذا المعدن أغفلت مدة تسعة قرون .

(٦٩) كانت منارة الإسكندرية أول برج عال بالمعنى المفهوم تمييزاً لها من الأهرام والمليويات البابلية المعروفة باسم الزيجورات ziggurat .

(٧٠) لست أعرف اسم أول من أدمج فاروس في القائمة التي يحتمل أن تكون أقدم من قائمة فيلون . على أن القائمة التي اشتملت على فاروس برهنت على قدرتها على البقاء بدليل أن فيكتور هوجو رجع إليها في كتابه الذي عنوانه : *Légende des siècles* (1877-1883).